المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
ARAB CENTER FOR RESEARCH & POLICY STUDIES

دراسة

الحدث السوريّ: مقاربة "تفكيكيّة"

د.عقيل محفوض | يونيو ٢٠١٢

الحدث السوريّ: مقاربة "تفكيكيّة"

سلسلة: دراسات

د.عقيل محفوض | يونيو ٢٠١٢

جميع الحقوق محفوظة للمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات © ٢٠١٢

المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السّياسات مؤسّسة بحثيّة عربيّة للعلوم الاجتماعيّة والعلوم الاجتماعيّة التطبيقيّة والتّاريخ الإقليميّ والقضايا الجيوستراتيجية. وإضافة إلى كونه مركز أبحاثٍ فهو يولي اهتمامًا لدراسة السّياسات ونقدها وتقديم البدائل، سواء كانت سياسات عربيّة أو سياسات دوليّة تجاه المنطقة العربيّة، وسواء كانت سياسات حكوميّة، أو سياسات مؤسّسات وأحزاب وهيئات.

يعالج المركز قضايا المجتمعات والدول العربيّة بأدوات العلوم الاجتماعيّة والاقتصاديّة والتاريخيّة، وبمقاربات ومنهجيّات تكامليّة عابرة للتّخصصات. وينطلق من افتراض وجود أمن قوميّ وإنسانيّ عربيّ، ومن وجود سماتٍ ومصالح مشتركة، وإمكانيّة تطوير اقتصاد عربيّ، ويعمل على صوغ هذه الخطط وتحقيقها، كما يطرحها كبرامجَ وخططٍ من خلال عمله البحثيّ ومجمل إنتاجه.

المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السّياسات
شارع رقم: ٨٢٦ – منطقة ٦٦
الدفنة
ص. ب: ١٠٢٧٧
الدّوحة، قطر
هاتف: ٤٤١٩٩٧٧٧ ٩٧٤+ | فاكس: ٤٤٨٣١٦٥١ ٩٧٤+
www.dohainstitute.org

ملخّص

شهدت سورية منذ آذار / مارس ٢٠١١ واحدةً من أكبرِ وأكثرِ التحولات أهمية في تاريخها الدّولتيّ المعاصر. وقد أثارت – حتى وقت قريب – قدرًا متقاربًا نسبيًا بين الآمال والمخاوف بشأن طبيعة ما يجري، ومسارات الأمور وتحولاتها، واحتمالاتها المستقبلية، وخاصةً على صعيد طبيعة الدولة والتكوين الاجتماعيّ والسياسيّ، والموقف من القضايا الإقليميّة والدوليّة.

وتنطلق هذه الدراسة من مقولةٍ رئيسةٍ بأنّ ما يجري في سورية هو "حدثٌ" بكل المعاني والدلالات المحتملة أو الممكنة لمفهوم "الحدث". ويتألف البناء المنهجيّ من مفهوم رئيس هو مفهوم "الحدث"، ومفاهيم فرعية يتضمنها كل بعدٍ من أبعاده المقترحة في الدراسة، مثل: "لا متوقع"، و"غير مسبوق"، و"الصدمة"، و"الحد الفاصل"، و"خلافي"، و"الفرصة السانحة"، و"التحديات الماثلة، و"الارتياب"، و"اللجة"، إلخ.

وتخلص الدراسة إلى أنّ تناول "الحدث" السوري، هو نوعٌ من مقاربة "تفكيكية" لأبعاد المشهد السوري، تطال أيضًا مُسبقاته وخلفياته والإمكانات أو الاحتمالات النشطة لتطوره؛ وأنّ الخطاب السياسيّ عن الحدث مشدودٌ لما "يأمله" الخطاب (وأصحابه) بأكثر مما "يقتضيه" الواقع؛ وأنّ ما يجري في المشهد السوريّ هو نتيجة "توافقٍ موضوعيّ" بين عوامل وفواعل عديدة، داخلية وخارجية، واقعية وافتراضية. وتتناول الدراسة "الحدث"، بعيدًا – ما أمكن – عن أي خلفية أيديولوجية، تبجيليّة كانت أو تأثيميّة.

المحتويات

مقدمة ١

أولًا: المنهج والمفاهيم الرئيسة ٢

المنهج ٢

مفهوم "الحدث" ٣

ثانيًا: لا متوقع!؟ ٤

"اللّا مُتَوَقَّع" كمفهوم سياسيّ ٥

أهمية "اللّا متوقع" ٦

مكر السياسة؟ ٧

اختبار "اللّا متوقع" ٨

ثالثًا: غير مسبوق ١٠

السياق ١٠

بلا منوال ١١

الدوافع الفرديّة والجماعيّة ١٢

رابعًا: الصّدمة ١٣

الصّدمة/الاستجابات الأولية ١٣

"الإنكار/الإقرار" ١٥

هل هو جرح نرجسيّ؟ ١٦

خامسًا: حدّ فاصل ١٨

البعد الخلاصيّ ١٩
البعد الارتداديّ أو النُّكوصيّ ١٩
مرحلة فاصلة ٢٠
"عقدة غورديان" ٢٠
الانفجار العظيم (Big Bang) ٢١
سادسًا: خلافي ٢٢
الخلافية البسيطة والشديدة ٢٣
خلافية دوغمائيّة ٢٣
المنزلة بين المنزلتين ٢٦
سابعًا: جدل "الواقعي" – "الافتراضي" أو جدل "الأصل" – "الصورة" ٢٧
الواقعي والافتراضي في السياسة ٢٨
أولوية "الافتراضي"، أولوية "الصورة"؟ ٢٨
"اختفاء الواقع" ٢٩
الدال والمدلول ٣٢
ثامنًا: جدل "الفرصة السانحة" – "التحديات الماثلة" ٣٣
"الفرصة السانحة" ٣٣
"المخاطر الماثلة" ٣٥
تاسعًا: "ارتيابي" أو "لا يقيني" ٣٦
ما الذي حدث؟ ٣٧
الارتياب في الزّمن ٣٨

الارتياب في المكان ٣٨
المناطق النّشطة ٣٩
المناطق القلقة ٤٠
المناطق القارّة ٤٠
الارتياب في الصّورة: رؤية فصاميّة ٤٠
عاشرًا: "الضّغوط المخياليّة" ٤١
المخيال كـ "فاعل" أو "ناشط سياسيّ" ٤٢
"الإقدام"/"الإحجام" ٤٣
الحادي عشر: لُجِّي؟ ٤٥
في اللجّة ٤٥
"تفسير كوبنهاغن" ٤٦
"الإشارات والتّنبيهات" ٤٨
الخاتمة ٤٩
قائمة المراجع والمصادر: ٥٠

مقدمة

شهدت سورية منذ آذار / مارس ٢٠١١ واحدةً من أكبرِ وأكثرِ التحولات أهمية في تاريخها الدّولتيّ المعاصر. وما لبثت أن تطورت الأمور – بفعل "التّجاذبات" الكثيرة حول ما يجري – إلى "انفجار" المشهد السياسيّ، بكيفية "غير مسبوقة". وقد أدى ذلك إلى استجابات متفاوتة ومتباينة، بحسب أطراف وفواعل الأزمة، وسبّب أحيانًا "جروحًا" غائرة، وليس من المُتوقع أن "تلتئم" في أمد قريب. ونحن نتحدث عن "صدمةٍ" و"جروحٍ" من منظورٍ نفسيّ وإدراكيّ، وواقعيّ، كما نتناول "الحدث" بكل "العدة" المفاهيميّة والمعرفية، متحررين –ما أمكن– من أي حمولة أيديولوجية، تبجيليّة احتفائيّة كانت أو تأثيميّة وإنكاريّة.

وعلى الرغم من أنّ الأزمات أو التّحديات الكبرى هي التي تصنع استجابات وتحولات كبرى، إلّا أنّ الأمل في التغيير في سورية هو عبءٌ نفسيّ ومعنويّ ومادّيّ مضاف إلى أعباء "الحدث" نفسه، ويبدو مكابدةً أخرى مع كل الإحباط والتّشاؤم الناشئ عن "قراءةٍ عقلانيّة" للأمور، إلا أنّ "تفاؤل الإرادة" هو الذي يزيد الأمل في تجاوز المحنة.

تتناول الدراسة الأزمة السوريّة في مستويين؛ الأول هو التمييز بين "الحدث" من جهة، و"المعرفة به" أو "التعبير عنه" من جهة أخرى؛ والثاني هو عملية معكوسة، وتتمثل في "إعادة الارتباط" بين "الحدث" و"المعرفة به" أو "التعبير عنه"، أي بين الوقائع من جهة، وارتداداتها ونتائجها السياسيّة والثقافيّة من جهة أخرى.

وتنطلق الدراسة من مقولة رئيسة تفيد بأنّ ما يجري في سورية هو "حدثٌ" بكل المعاني والدلالات المحتملة أو الممكنة لمفهوم "الحدث". وتقدم مقاربة تفكيكية من مستويين؛ الأول منهما عام يحكمه مفهوم "الحدث" بكونه مقولة مركزيّة وأداة تحليل رئيسة؛ والثاني يضم شبكةً من المفاهيم والمقاربات من مصادر فكريّة وعلميّة مختلفة نفترض أنّها تساعد في تغطية المشهد السوريّ في جوانب عديدة هي أبعادُ مفهوم "الحدث" المشار إليه. ومن المفاهيم المعتمدة في التحليل "اللّا متوقع"، و"الصّدمة"، و"العقلية الدوغمائيّة"، و"الارتياب"، و"ما فوق الواقع"، و"اللّجة".

تحاول الدراسة تقديم مقاربة نظرية وتفكيكيّة، واقتراح إطارٍ مفاهيميّ للنّظر في "الحدث"، بما يساعد في إجلاء الأمور، وربما الخروج من نمطية الاصطفافات المتوترة والعنيفة. ويبدو تناول الظاهرة السوريّة اليوم مهمة واجبة بسبب التّجاذبات والمواجهات الماديّة والرمزيّة بشأن الحدث، والأدلجة الشديدة التي "تحكمها". وهناك إلى جانب ذلك ضرورة التعرف (ما أمكن) على طبيعة التهديدات والفرص في الحدث، والعوامل أو الفواعل التي تحكم سيرورة الأمور.

والواقع أنّ مهمة التّناول "الهادئ" أو "البارد" للموضوع مُحاطَةٌ ببيئة "ساخنة" وغير مُستقرة، بل وانقسامية على نحو غير مسبوق. هنا المهمة الكبرى أمام المشتغلين بالشأن العلميّ والتحليل السياسيّ، وهي نفسها مصدر أو مبعث الأهمية لما نحن بصدده أيضًا.

أولًا: المنهج والمفاهيم الرئيسة

المنهج

يتعلق الأمر بمستويين من التعاطي المنهجي؛ الأول كلي يتمثل في مقاربةٍ نظرية تفكيكيّة مركبة، تحاول "القبض" – ما أمكن – على "الحدث"، من أجل "تفكيكه"، و"إزالة الغموض" عنه. وذلك من خلال مفهوم رئيس يُجمل الظاهرة أو الحدث السوريّ بمعناه المفهوميّ. أما المستوى الثاني فهو جزئيّ (أو فرعيّ)، ويتمثل في "شبكةٍ" من المفاهيم والمداخل التي تصف –أو بالأحرى "تفكك"– جوانب الموضوع، وتحاول "الإحاطة" به انطلاقًا من خبرات وتجارب بحثيّة ونظرية وتطبيقية "مستعارة" من قطاعات معرفيّة أخرى، مثل مفاهيم "اللّا متوقع"، و"الصدمة"، و"عقدة غورديان"، و"اللّجة"، مستندين في ذلك –بكيفيات مختلفة– إلى نتائج الثّورة العلميّة والمعرفيّة التي تشهدها العلوم الإنسانيّة وحقول العلم عامة.

وثمّة في حقلي العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة، مناهج ومداخل تحليلٍ مختلفة، يمكن أن تؤدي الاستعانة بها (أو اختبارها) في قراءة الحدث السوريّ إلى إضاءة جوانب أخرى للمشهد. وفي كلٍّ منها ما قد يصل بنا إلى "قراءةٍ أخرى" و"تفكيكٍ آخر". وهذا مما يعزز الطبيعة المركبة والتأويليّة

للأحداث وكيفيات تلقّيها وأدوات تقصّيها واختبارها، وهو مما يمكن أن يجعل الأمور أكثر وضوحًا، والمشهدَ أكثر انفتاحًا على أنماطٍ وكيفياتٍ من القراءة أو التّلقي، لا حصر لها!

مفهوم "الحدث"

ما يجري في سورية هو "حدثٌ"، بالمعنى الذي يورده مثلًا جاك دريدا[١]، وهو مفهومٌ يتعلق بـ"أمرٍ ما" يطرأ على نحو "مباغت" و"لا متوقع"، و"غير مسبوق" (أو "فريد")، في بيئة ما؛ أو في مكان وزمان محددين؛ ويكون له "وَقْعٌ" في الذاكرة، و"رَوعٌ" في الخاطر، ويبدو كأنما هو "خارج السياق"، فلم تسبقه مؤشرات تمهيدية مثلًا. وسوف يكون أمرًا "من المستحيل نسيانه" أو "مَحوُه" من الذاكرة الجمعيّة[٢]، كما أنّ بَوَاعِثَهُ –وربما مُحرِّكاته– افتراضيّة وإدراكيّة أكثر مما هي واقعية، أو أنّ الوزن النسبيّ للعوامل الرقميّة والميديائيّة والمخيال السياسيّ ربما يكون أكبر من العوامل الحدثيّة والواقعيّة والموضوعيّة.

والحدث هنا يؤسس لتطوراتٍ جديدة، وبالأحرى هو "يستحدِثُ تاريخًا"، وهو حدّ فاصِل، ليس في مجريات الأمور فقط، وإنما أيضًا في المدارك والأفكار بشأنها؛ وليس فقط أن ما بعده مختلف عما قبله، وإنما أيضًا "كأنه خلقٌ جديدٌ ونشأةٌ مُستأنَفَة وعالمٌ مُحدَث" – بتعبير ابن خلدون –، فضلًا عن أنّه يثير تحديًا معرفيًا أيضًا من جهة الصعوبات في "تعريفه وتحديده"[٣].

---

[١]– عن مفهوم "الحدث"، انظر مثلًا: جاك دريدا، **ما الذي حدث في حدث ١١ سبتمبر؟**، ترجمة صفاء فتحي، مراجعة بشير السباعي، ط١ (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣)، ص ٥١ وما بعدها.

[٢]– انظر: المرجع السابق، ص ٥١ – ٦٢.

[٣]– انظر: المرجع نفسه، ص ٥١ – ٦٢.

ويرى دريدا أنّ الحدث العظيم يجب "أن يكون طارئًا ومباغتًا لدرجة أنّه يجعل أُفق المفهوم نفسه يهتز، ويشوش أيضًا الجوهر الذي بمقدوره أن يتيح لنا التّعرف على الحدث باعتباره حدثًا"[٤].

ويتعلق الأمر بتحديد المقصود بـ"الحدث"، وتحديد أبعاده كمفهوم، وكيف أنّ ما يجري في سورية هو "حدث" بـ"كلٍ" أو "كثيرٍ" من المضمون الدلاليّ أو الحمولة الدلاليّة للكلمة، ويزيد على ذلك ما يمكن أن يتوصل إليه الدارسون والمعنيون من تحديد لفواعله وعوامله ومحدداته، وما يَعِدُ به.

ويمكن تركيز الأبعاد العامة للمفهوم في النقاط التالية: ١- "لا متوقع"، ٢- "غير مسبوق"، ٣- "الصدمة"، ٤- "الحد الفاصل"، ٥- "خلافيّ"، ٦- جدل "الواقعيّ/الافتراضيّ" أو "الصورة/الأصل"، ٧- جدل "الفرص السانحة/التحديات الماثلة"، ٨- "ارتيابيّ"، ٩- "الضغوط المخياليّة"، ١٠- "لُجِّيٌّ".

وسوف تركز المحاور التالية على تناول كل بعد من هذه الأبعاد على حدة.

ثانيًا: لا متوقع!؟

لم يكن الحدث السوري مُتَوَقَّعًا، لا ببدايته الأولى، ولا بمساراته اللاحقة. ولكن، لماذا كان "لا مُتوقَّعًا"؟ وهل هو "لا مُتوقّع" وكفى، أم أنّ ثمّة تحوّلات داخل المعنى أو التّوصيف نفسه؟ وهل يمكن أن يكون "اللّا مُتوقّع" مفهومًا سياسيًّا؟ وما هي أهميته؟ وهل كان بالإمكان "تدارك" ما حدث لو وجدت مدارك عنه قبل حدوثه، أم أنّ للسياسة "مكرًا" لا حيلة للسياسيّ تجاهه؟

[٤] – المرجع نفسه، ص ٥٩.

"اللّا مُتَوَقَّع" كمفهوم سياسيّ

"اللّا مُتوقَّع" هو في الأساس مفهوم فيزيائي يتناول الظّواهر "غير المنضبطة" في الطبيعة مثل حركة الغيوم، وتَقَلُّبَات الطقس، التي تبدو فوضويّة محضة؛ ويتقصّى وجود "أنماطٍ تحليليّة" أو "قوانين كامنة" في تلك الظواهر[٥].

ويمكن النّظر إلى "اللّا مُتوقَّع" كمفهوم في إطار العلوم الاجتماعيّة، وإن لم يُولَ ذلك الكثير من الجهد العلميّ مُقارنةً بالفيزياء مثلًا. ويدرس المفهومُ في العلوم الاجتماعية "الأنماطَ التكرارية" في السلوك السياسيّ والاجتماعيّ، ويحاول تقصّي العوامل والفواعل والمُحدِّدَات المُرَكَّبَة والمُتداخِلة للظاهرة السياسيّة، وخاصةً في الحالات غير الاعتيادية، مثل الاضطرابات والثّورات وتَقَلُّبَات الرأي العام. ويمكن التركيز هنا على ثلاثة أبعادٍ للمفهوم:

- تناول الحساسية المُفرِطَة للتغيّرات في العوامل الأوليّة المؤثرة في الظاهرة، والتي تؤدي إلى تغييرٍ كبير فيها. ويطلق على هذه الظاهرة تندرًا تسمية "تأثير الفراشة" (Butterfly effect).
- "المُحاكاة"، أو "تأثير الانتشار"، و"المنوال"، و"النموذج"، والتي تتقصى الأنماط التكرارية والاستجابات الحاصلة بتأثير خارجيّ.
- "التغذية الرّاجعة" أو "السببيّة المركبة"، وتتناول التّداخُل بين النتائج والأسباب، والانفصال عن "الحدث البدئيّ" أو "الأوليّ" إلى بيئة مركبة ومُتداخِلَة وحالة من المَدَارِك المُنْفَصِلَة عن الواقع والهادِفَة إلى التّأثير فيه قصديًّا ومراجعَتِهِ وهندَسَتِهِ.

وهناك أيضًا منظوران –أو مستويان– لـ"اللّا متوقع"؛ أولهما هو الحدث الذي لم يخطر على بالِ أحدٍ حدوثُه حتى لحظة الابتداء؛ والثاني هو ما أَعقَبَ ذلك، وما أصبح تحت النّظر والتدخُّلِ والتأثير، ولكن ليس تحت "التحكُّم".

---

٥ – جايمس غليك، **نظرية الفوضى، علم اللّا متوقع**، ترجمة أحمد مغربي، ط١ (بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٨).

أهمية "اللّا متوقع"

ينطوي ما يجري في سورية –في بُعدٍ أساسيٍّ منه– على "لا مُتوقّع" في معانيه الكلية، بدءًا من المكان والزمان إلى التطورات والارتدادات، ومن حيث "الدّرجة" و"النّوع"، وهو ليس نتيجةً تطوريّة مباشرة لتحولات سياسيّة ولاتجاهات الرأي العام، ولم يكن ضمن أيّ احتمالات قدَّمتها الدراسات السوريّة والإقليميّة سابقًا. وهذا يعني أنّ ما يحدث اليوم ليس جوابًا عن سؤال الأمس، إنّه لا يُحيل إلى مقترحات أو تنبؤات أَلِفناها سابقًا، ومن ثمّ فإنّ التّساؤل ينفتح على إشكاليتين رئيستين تقعان في قلب التّحديات المعرفيّة والعلميّة: الأولى عما إذا كان لهذا الذي يحدث خلفيات ومقاصد تجلّيها التطورات اللاحقة. والثانية عن أهمية "اللّا متوقع" في الظاهرة الاجتماعيّة والسياسيّة.

لم يكن أكثر المراقبين خبرةً وحساسيّة تجاه الشأن السوريّ يتوقّع حدوثَ "اندفاعٍ" اجتماعيّ وجماهيريّ في سورية على نحو ما حدث في عددٍ من الدول العربيّة. صحيح أنّ ثمّة دراسات و"استبصارات" فرديّة ومنهجيّة هنا وهناك، إلا أنّ معنى ما حدث ومداه، ربما فاقَ أيّ توقُّع. ولا بد من التّنويه أو التنبيه إلى أن "اللّا متوقع" كمفهوم أو منظور يقوم يتقصى "الحدث" بصفته "مفاجئًا" بصرف النّظر عن حكم القيمة تجاهه، هل هو فرصة أم تهديد؟ أو هل هو "جيد" أم "سيء"؟

وقد تحدث النظامُ السياسيّ في سورية عن "الحدثَ العربيّ" بالتركيز على ما اعتبره ردَّ الشارع على السياسات الخارجيّة لنظم معينة ومواقفها من القضايا العربيّة والدوليّة، و"سَكَتَ" عن العواملِ الداخليّة والاعتبارات الخاصة بالحريات وتَدَاول السلطة والعوامل الاجتماعيّة–الاقتصاديّة. وكان احتمال أنّ في سورية ما يمكن أن يدفع بالأمور إلى المسار نفسه أمرًا "لا مُفكّر فيه" لدى النظام، والأصح أنّه كان "مُتَنَكّرًا له". وهذا على أيّ حال يتطلب الكثير من التحليل والتقصي.

لقد كان احتمال حدوث أمر ما في سورية مُستبعدًا، حتى أنّ الرئيس بشار الأسد قال قبل فترة قصيرة من بداية الاحتجاجات "إنّ على الحكام العرب الاستجابة لطموحات شعوبهم. وإنّ التظاهرات في مصر وتونس واليمن تُطلِقُ حقبةً جديدة في الشرق الأوسط". وقد استبعد الأسد

"تبني إصلاحات سريعة وجذريّة"، وحَذَّرَ من أنّ المطالب بالإصلاحات السياسيّة السريعة قد تكون لها ردة فعل سلبية "في حال لم تكن المجتمعات العربيّة جاهزة لها"[٦].

وكتبت مستشارته بثينة شعبان، قبل أيام معدودة من انطلاق الاحتجاجات في سورية، وقالت: "لا بدّ من الاحتفاء بالعناصر المشتركة بين أبناء لغة الضاد اليوم، وثوراتهم الحاليّة، وانتقالها من بلد إلى آخر، والتي تؤكد على وحدة الأمّة العربيّة وقضاياها"[٧]. وقالت شعبان في مقال آخر، إنّ ما حدث "إلى حدّ الآن من ثورات كان يصعب تخيّلها في الربع الأخير من العام الماضي"[٨].

مكر السياسة؟

وحَدَثَ أن جرت الدّعوة للتّظاهر في دمشق أمام البرلمان في يوم الجمعة ٤ شباط / فبراير ٢٠١١، إلا أنّ التظاهرة لم تجر و"لم يأت أحد"[٩]، ومثلها دعوات أخرى، وهو ما أعطى "رسالةً خاطئة"، بل أكد "مداركَ خاطئة" لدى النّظام، وحتى لدى المراقبين وعامة النّاس، بأنّ البلاد ليست في وارد الدخول في موجة التّغيير العربيّة الراهنة. مع أنّ حادثة "الحميديّة" أو "البزوريّة" بدمشق كانت مؤشرًا على احتقانٍ كبير، وعن استعداد للعمل على الأرض، ولم تكن أمرًا عابرًا فحسب.

---

[٦]- حديث الرئيس بشار الأسد إلى صحيفة وول ستريت جورنال، (٣١-١-٢٠١١).

[٧]- بثينة شعبان، "خصائص الزمن القادم"، **الشرق**، (الدوحة: ٢٨-٢-٢٠١١).

[٨]- بثينة شعبان، "طواحين لا تحركها إلاّ رياح التغيير"، **الشرق**، (الدوحة: ٧-٣-٢٠١١).

[٩]- زياد حيدر، "سورية: لم يأت أحد لـ "جمعة الغضب""، **السفير**، (٥-٢-٢٠١١).

قد يكون الحدث الراهن "لا متوقعًا" ليس بسبب "طبيعة" الوقائع و"حجمها"، وإنما لـ"الكيفية" التي جرى بها، و"السيرورات" التي تبعت ذلك، فالتطورات والكيفيات اللاحقة هي التي أعطت "الحادثة الأولى" أو "الشرارة" معنى "الحدث" لكونها لم تكن مُتوقَّعَة، أي أنّ الأمور يفسرها ما بعدها.

لقد أمكن للحدث في سورية أن يتغلغل في نقاط الاختلال ومناطق التوتر والاحتقان الداخلي، وأن يستفيد من ضعف أو انعدام الثقة بين الدولة والمجتمع، وبين الدولة والإقليم والعالم، وأن ينتفع من اختلال نظام التّواصل والتّراسل والضبط بين النظام والمجتمع. وهذا ليس نتيجة عمل مخطط له، وليس "توافقًا موضوعيًّا" فحسب، ولا "توافق" أو "تواطؤ الأضداد" من أجل التغيير في سورية، إنما هو فوق كل ذلك، نوعٌ من "مكر السياسة"، إذ تأتي الأزمات من مصادر وجهات غير متوقعة، وبكيفيات مفاجئة.

وقد تبيّن أنّ "مكر السياسة" كان مركبًا، فهو "مكر الحدث" أو الشرارة الأولى، و"مكر" التوافق والتحالف الموضوعيّ (وربما القصدي) بين عناصر طيف واسع من الأطراف في الداخل والخارج، والأهم أنّ ذلك كلّه موضوعٌ "تحت المجهر" بكيفية غير مسبوقة.

اختبار "اللّا متوقع"

يعدّ اختبار "اللّا متوقع" الوجهَ الآخر للسؤال، أي متى يكون أمرٌ أو حدثٌ ما مُتوقَّعًا، وما هي عوامِلُه وفواعِلُه؟ وهذا نوع من التأكيد على أهمية دراسة "الأنماط التكراريّة" للأحداث، و"الأنماط الاحتماليّة" الناشئة عن تفاعلات كل طرف وإمكاناته ومداركه. وهذا يساعد على المزيد من الفهم، ويتيح إمكانية التأثير في ما ندرسه.

هنا يصبح التّدخل جزءًا من المتغيرات والفواعل، ويمكن التّأثير المباشر في الحدث في مكان وزمان ما، ولا يمكن معرفة نتائجه والوضع الكلّي للحدث في اللحظة التالية. وذلك يشبه خلط أوراق اللعب المخلوطة أصلًا وهو ما يغير حتما مسارات اللعب مقارنة بالخلط الأول. ولكن، كيف ذلك؟ وهل هو أفضل؟ وهل العودة عنه إلى الوضع السابق ممكنة؟ فهذا لا جواب له، وهو

ليس غريبًا، والواقع أنّه من الممكن أن تجري البرهنة –منطقيًا ورياضيًا– على أنّ مسألة ما مستحيلة الحل، مثلما أنّه توجد قضايا "يصعب تصديقها حتى بعد البرهنة عليها"[١٠].

لا يمكن إنكار أنّ في الحدث السوريّ اليوم "أنماطًا تكرارية"، من قبيل الزمان (أيام الجمعة مثلًا) والمكان (مناطق معينة)، والشعارات، وتواصل الاحتجاجات. وينسحب الأمر على الوجه الآخر من الصورة، فتجد "أنماطًا تكراريّة" لدى النظام ومؤيديه، من حيث الزمان إلى توقيت الإجراءات الحكومية و"التشريعات الإصلاحية" مثلًا، ومن حيث المكان (مناطق معينة أيضًا). ومن حيث تنظيم التظاهرات والفعاليات المؤيدة.

وثمّة "أنماط تكرارية" واضحة في المواجهات الأمنيّة، وردود الأفعال، والخطوات الاستباقيّة، والسلوك الإعلاميّ، والكمائن، والشائعات، وغيرها من عناصر الحدث السوري، إذ يتوقع كل طرفٍ –تقريبًا– طبيعة "ردّات" الفعل واستجابات الآخر تجاه أمر ما. ويحدث شيءٌ من ذلك بين النظام في سورية والأطراف الإقليميّة والدوليّة.

أمَا وأنّ الحدث "وقع"، فإن تطورات "تقع" هي الأخرى، يصبح التعاطي معها من باب "إدارة الأزمة". وثمّة مداخل عديدة للتّعاطي مع الأزمات[١١]، ومن بينها "الاحتواء الاستباقي" من خلال سياسات بعيدة المدى تتقصّى تطورات واحتمالات الأمور وتخطط للتعامل معها وفق ما تراه ملائمًا من سياسات على الصعيد الجزئي والقطاعي أو على الصعيد الكلي.

ولا بد من التنويه إلى أنّ مفهوم "اللّا متوقع" يتعلق –حتى الآن– بما حدث في اللّحظات الأولى وحتى المشهد الراهن، وليس بما يأتي أو بما لم يحدث بعد! وقد يساعد في "التنبؤ" أو

---

١٠ – العبارة لـ السِّجزي (ت ٤١٥هـ/١٠٢٤م).

١١– انظر مداخل تحليل مختلفة لأنماط التعاطي مع الأزمات والاستشراف المستقبلي لها مطبقة على الشأن السوري، في: محمد جمال باروت، (المؤلف الرئيس)، **التقرير الوطني الاستشرافي الأول – مشروع سورية ٢٠٢٥** (دمشق: هيئة تخطيط الدولة، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، ٢٠٠٧)، مواضع مختلفة.

"الاستشراف" لما يحتمل أن تؤول إليه الأمور، وذلك بالتأسيس على مراقبة وتقصٍّ وتفاعل مباشر مع الحدث، أي أنّه يعمل على "الإمساك" بـ"إطار عام" لـ"اللّا متوقع" في الظاهرة السوريّة.

ثالثًا: غير مسبوق

نحن أمام حدث جعل المشهد السوريّ مختلفًا كلّيًّا –تقريبًا– عما كان عليه قبله، وكاد أن يكون حدثًا "محضًا"، بالمعنى الذي يورده جان بودريار مثلًا، أي عصيًا على الفهم، وخاصةً عندما تحضر صوره وتأويلاته أكثر من "حقيقته". و"غير مسبوقٍ" هو توصيف مؤقت وتقريبيّ، ومحكوم بما تَؤُول إليه الأمور. ويتعلق الأمر بموقع الحدث واتجاهه بالنسبة إلى سياقه وإطاره الاعتياديّ أو التاريخيّ، وهل هو وفق "منوالٍ" سابقٍ أو "على غرار" حدثٍ ما، "ذاتيّ" أم "غيريّ"؟ وما هي علاقة الحدث بالدوافع الفرديّة والجمعيّة في إطار "الاجتماعيّ"؟ وهي أبعادٌ تستجمع سمات الحدث السوريّ لتجعل منه حدثًا "غير مسبوق" و"فريدا".

السياق

عندما نصف ما يجري بأنّه "غير مسبوق" و"فريد"، فإنّنا نميزه بكيفية مباشرة عن إطار أو مسار التّطور التاريخيّ والسياسيّ والاجتماعيّ لسورية، ويبدو كما لو أنّه "خارج السّياق"، وذلك بالنسبة إلى التاريخ القريب، أي منذ عدة عقود فقط. إلا أنّ النّظر في مدد زمنية أكبر يجعل الرؤية مختلفة، حتى لَيبدو أنّ الحدث السوريّ اليوم كأنّما هو نوع من "التّصحيح" للانطباعات الشّائعة عن سورية، كبلدٍ "قارٍّ" أو "مستقرّ"، و"حداثيّ"، إلخ. ويزيد على ذلك أنّ ما يجري يدل على طبيعة الحدث في المكان والزمان التاريخيّ[١٢]، إذ إنّ سورية الآن "تُفصح" عن نفسها أكثر مما فعلت خلال العقود الماضية.

---

[١٢] – انظر مثلًا: رشيد الخالدي، "الثورات العربية ٢٠١١: ملاحظات تاريخية أولية"، **مجلة الدراسات الفلسطينية**، (بيروت: العدد ٨٦، ربيع ٢٠١١)، ص ١٧–٢٣. وانظر: برهان غليون، "الولادة الجديدة للعالم العربي"، **مجلة الدراسات الفلسطينية**، (بيروت: العدد ٨٦، ربيع ٢٠١١)، ص ٨ – ١٦.

والمشهد السوريّ "غير مسبوق" بمعنى أنّه خارج السياق المعتاد في العقود الأربعة الماضية، وهو "خروج" عن الفترة الدولتيّة القوميّة أو البعثيّة (منذ ١٩٦٣)، ولكنه "عَودٌ" إلى السياق التاريخيّ السابق للفترة المذكورة، بكل ما حدث في سورية آنذاك من تحولات وتجاذبات وتناقضات في السياسات الداخلية والخارجية.

بلا منوال

ما يجري في سورية لا "منوال" له ولا "نموذج" من المجال السوريّ نفسه، وهذا يتطلب المزيد من التدقيق. ثمّة أكثر من منوال أو نموذجٍ من حيث تكتيك الاحتجاجات والتظاهرات ووسائط الميديا، كما في مصر وتونس وليبيا، ومن حيث العنف الطائفيّ كما في أفغانستان والعراق وغيرها. وثمة مقارناتٌ بين ما يجري اليوم في سورية وما جرى فيها في ثمانينيات القرن العشرين، ونجد هذه المقارنة خاصة لدى الراغبين في مقاربة "إخوانيّة" أو "إسلامويّة" للموضوع، مما يمكن اعتباره "منوالًا"، وهذا أمر مشكوك فيه، حتى مع تشابه الحالتين في العديد من المصادر والفواعل المحليّة والخارجيّة.

إنّ التّطورات تجري "بلا منوال"، إذ إنّ سورية لم تعتد على الاحتجاج العام، بل إنّ النظام السياسيّ ربما شعر بأنّ الأمور مستقرة لدرجة يمكنه معها أن يؤجل القيام بالإصلاحات التي وعد بها إلى أجل غير مسمى. وقد شهدت الأزمة السوريّة تحريكًا نوعيًّا غير مسبوق لعاملين –أو فاعلين– بالغي الحساسية والتأثير؛ الأول تجسده "الصورة" و"الميديا" و"العالم الافتراضي"؛ والثاني يشمل "المخيال السياسيّ" و"سوسيولوجيا الأمل". وتَدَاخَلَ هذان العاملان في السياسة وفي الأزمة السورية على نحو خاص، وتَحَوَّلا إلى قوةٍ ماديةٍ شديدة التّأثير، ووضعا الأمور أمام "قوة تحريك" و"تأثير" هائلة. وسَوف نتناول ذلك في موضع آخر من الدراسة.

الدوافع الفرديّة والجماعيّة

شهدت سورية نوعًا من "الانقلاب" غير المسبوق في حركية "الدوافع الفرديّة" و"الجماعيّة"، خلاف الإطار المعياري/الفرويديّ بهذا الخصوص[١٣]. وما حدث هنا هو أنّ "الدوافع الفرديّة" كانت موجودةً في السنوات الأخيرة، إنما بدرجة ضعيفة تخللها تطور نشط نسبيًا، تحت عناوين المجتمع المدنيّ وجمعيات حقوق الإنسان والتغيير السياسيّ والديمقراطيّ، إلى جانب التّجليات ذات الطابع الدينيّ والمذهبيّ.

ولم يكن هناك تجلّيات مباشرة لدوافع جماعيّة نشطة وواسعة، خلا استثناءات معروفة. وما يحدث اليوم هو تغيير شبه كلي للصورة، هذا فيما يخص التجاذبات بشأن الاحتجاجات الراهنة، التي اتّخذت طابعًا جماعيًّا "غير مسبوق". وهنا يمكن التركيز على ديناميتين متعاكستين:

- محاولة النظام إرجاعَ ما هو جمعيّ إلى حالات فرديّة أو قليلة العدد أو مُغرّر بها بالمال أو بـ"النعرة" القبلية والعشائرية والعائلية والمناطقية والطائفية، ومن ثمّ فهي بالنسبة إليه ظاهرة "غير أصليّة". ويعمل في المقابل على إبراز التّظاهرات المؤيدة بكيفية "تُظهِر" الاحتجاجات "على هامش" المشهد السوريّ. وقد قال الرئيس بشار الأسد إنّ سورية تتعرض لـ"هجمة افتراضية غير مسبوقة لم يكن من السهل خلالها التمييز بين الحقيقيّ منها والوهميّ، وبين الأصليّ والمزور"[١٤].

- محاولة المعارضة إبرازَ الظواهر الفرديّة والتجمعات – الصغيرة أو الكبيرة – ذات الطابع المحلي أو المناطقيّ، على أنّها حالة جماعيّة أو شعبيّة "تمثّل" الشّعب السوريّ، ومن ثمّ، فإنّ ما تحيل إليه المعارضة هو بالنسبة إليها ظاهرة "أصليّة" و"تمثّل الشعب". وتعمل في

---

[١٣] – انظر في مفهوم الدوافع الفردية والجماعية: سيجموند فرويد ، **علم نفس الجماهير**، ترجمة وتقديم جورج طرابيشي، ط١ (بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠٦)، ص ١٠٨.

[١٤] – كلمة الرئيس بشار الأسد في جامعة دمشق، ٢٠١١/٦/٢٠.

المقابل على وصف التظاهرات المؤيدة للنظام بأنّها نتيجة "الخوف" من القمع، وأحيانًا "الرجاء" لدى المؤيدين "التقليديين"، وأنّ هؤلاء يمكن أن يُعيدوا النّظر في موقِفِهِم عندما يَضعف النّظام، كما حدث في بلدان أخرى.

رابعًا: الصّدمة

يكاد مفهوم "الصّدمة" أن يكون مفهومًا تفسيريًّا لجوانب عديدة من التّفاعل بين السوريّين والعالم منذ بدايات الاحتكاك بالنّظام العالميّ وحتى اليوم، ولكنه ليس من النّوع "المعمم" الذي يشمل كلية الظاهرة السوريّة[١٥]. ومفهوم "الصّدمة" قادمٌ إلى الدّراسات السياسيّة من مجال الفيزياء (علم الميكانيك) وعلم النفس، وتتكرر الإشارة إليه في الدراسات الاجتماعيّة والتاريخيّة والنفسيّة[١٦]، والسياسية[١٧]، وغيرها.

الصّدمة/الاستجابات الأولية

الحدث هو فعل الصّدم الأول في صورته "البدئيّة" و"تطوراته الأولى"، والمواجهات العنيفة خلال الاحتجاجات حالة من العنف الماديّ والرمزيّ المباشر، والتي لم تكن تصرِّح بالكثير، ولكنها ربما أَنبأَت بما لم يكن متوقعًا، وفتحت الباب أمام تساؤلات كانت "مسكوتًا عنها" قبل هذا، والأهم أنّها فتحت الباب أمام تصرفات صادمة.

---

[١٥] – في العلاقة بين الصدمة والحدث، يقول دريدا، "أي حدث جدير بهذه التسمية، حتى لو كان حدثًا "سعيدًا"، لا بد له أن يحتوي بشكل أو بآخر على جانب من الصدمة" (دريدا، مرجع سبق ذكره، ص ٧٠).

[١٦] – انظر: جورج طرابيشي، **المثقفون العرب والغرب: التحليل النفسي لعصاب جماعي**، ط١ (بيروت: دار الريس، ١٩٩١)، ص ١٧ وما بعدها.

[١٧] – ألفن توفلر، **صدمة المستقبل: المتغيرات في عالم الغد**، ترجمة محمد علي ناصف، ط٢ (القاهرة: الهيئة المصرية لنشر الثقافة والمعرفة العالمية، ١٩٩٠).

وتنطوي فكرة –أو مبدأ– الصّدم على مصدر تأثير خارجيّ، ولكن المشهد أمام حالة مختلفة، إذ إنّ مصدر الصّدم داخليّ وليس خارجيًّا. وقد تضمن التّفسير الرسميّ للحوادث الأولى شيئًا من ذلك، ولكنه ما لبث أن أحال الأمر إلى تأثير "خارجيّ" بحديثه عن "مندسين" أرادوا حرف الأمور عن مسارها المطلبيّ لتذهب في مسار آخر، ثمّ تطور الأمر إلى الحديث عن "مؤامرة".

أدى الحدث إلى اهتزازٍ شديد في مدارك السياسة في البلاد وكيفياتها ومساراتها العامة، إذ "قَلَبَ" الأوراق و"فَكَّكَ" النمطيّات السائدة والمقولات، وحتى الاستعارات والمسميات السياسيّة والرمزيّة، وكان ثمّة حالة من "الدهشة" و"الذهول" التي عَمَّقَتها التغطية الميديائية، والارتباك السياسيّ، والعنف المفرط، وانكشاف البلد على مصادر تهديد عديدة، وبروز انقلاب مفاجئ في السياسات الإقليميّة (والدوليّة).

وبرزت أشكالٌ مختلفة من ردود الأفعال والاستجابات التي بدت مُتَفَارِقة ومُتَعَاكِسَة، وتغيرت رؤى الناس ومداركهم عن أنفسهم، وعن المجتمع والدولة (وربما العالم). وهذا التغيير يُخَلِّفُ ندوبًا نفسيّة، وجروحًا عميقة في الكيان الاجتماعيّ وفي البناء الذهنيّ والنفسيّ للمجتمع، ويصيب تأثيرُه المداركَ عن الدور والموقع، والبيئة، إلخ. ولم تكن الصدمة هنا "مطالب إصلاحيّة" فحسب، وإنما مقاصد "تغييريّة" أو "ثوريّة"، بالمعنى الدارج أو المستجد لـ"الثورة"[١٨].

ولعل الأهم في الصدمة هو الجوانب الرمزيّة والإدراكيّة والمخياليّة، وخاصةً ما يطال نسق الذّاكرة الجمعيّة، التي تتعرض لإعادة مَوضعة (أو ترتيب) انتقاليّة أو اختلاليّة، وهنا يمكن أن يتخذ الأمر أشكالًا مختلفة من التفسير والتأويل. ويرتبط ذلك أيضًا بالبنى النفسيّة والاتجاهات الطارئة أو الراهنة للناس نحو الحدث وكل ما يتّصل بالوضع في سورية اليوم.

---

[١٨] – انظر مثلًا: مسعود ضاهر، "البعد الثقافي في الانتفاضات العربية الراهنة "، **الطريق**، بيروت، العدد ١ (صيف ٢٠١١). وعبد الإله بلقزيز، "اليقينيّات التي أسقطتها الثورة"، **الطريق**، بيروت، العدد ١ (صيف ٢٠١١). وعن المعاني والدّلالات "المستجدة" لـ "الثورة"، انظر: عزمي بشارة، **في الثورة والقابلية للثورة**، ط١ (الدوحة/بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١١).

"الإنكار/الإقرار"

عادة ما تتشكّل الاستجابات النّشطة أو ردود الأفعال الجمعيّة في أنماطٍ عامة، ونتناول الاستجابات بكيفية تنسجم مع النمطيّة المعتادة أيضًا لردود الأفعال تجاه الصدمات الكبرى، وهي بين "الإنكار" و"الإقرار"، وهذا ليس بالمعنى البسيط وإنّما المركب، أي أنّنا لسنا أمام "إنكار" أو "إقرار" مجردين، وإنما أمام حالة إدراكية وسياسيّة تؤدي إلى موقف سياسيّ وقوة ماديّة ومعنويّة.

وهكذا فإنّ "الإقرار" يقتضي الانفتاح على المسألة والانخراط النّشط في معالجتها، ومحاولة "إبراء" الجروح والآلام الّتي نشأت عنها؛ فيما يقتضي "الإنكارُ" عدم الاعتراف بطبيعة المشكلة والانغلاقَ عليها، والعمل النشط على احتوائها. والواقع أنّ مواقف كل طرف تنطوي على "إنكار" في جانب و"إقرار" في جانب آخر، وهذا يجعل الرؤية ملتبسة، والتمييز بين الأطراف أمرًا عصيًا.

ومن ثمّ فإن "المعارضة" تميل إلى "الإقرار" بـ"الأزمة" (وقد ذكرنا أنّه ليس إقرارًا مجردًا) وعمقها واتساعها، بل ومحاولة "هندستها" والتّدخل على الموضوع وتقديمه بكيفية منسجمة وتكامليّة. في المقابل تميل لوجهين من "الإنكار"، فهي تنكر ما تقول الحكومة إنه "خطوات إصلاحيّة"، وتنكر الاتهامات الموجهة إليها بـ "التآمر" و"التّسلح".

وتقوم "الموالاة" بالشيء نفسه تقريبًا، فهي تميل إلى "الإقرار" بجهود النّظام في "احتواء" الأزمة و"الاستجابة" للمطالب التي رفعتها الاحتجاجات، فيما تميل إلى "إنكار" أمرين، فهي تنكر طبيعة الأزمة وتحاول التّهوين منها والتّقليل من اعتباراتها الداخليّة، و"تنكر" الاتهامات الموجهة للنّظام بشأن "الخيار الأمنيّ" في التعاطي مع الحدث.

هل هو جرح نرجسيّ؟

"الجرح النرجسيّ" وهو "الجرح الذي أصيب به بنو الإنسان في كبريائهم، أو بتعبير أدق في نرجسيّتهم، عندما كشف لهم كوبرنيكوس أنّ كرتهم الأرضيّة ليست مركز الكون، وأنّها هي التي تدور حول الشمس، وليست الشمس وغيرها من الكواكب هي التي تدور حولها"[١٩].

ويعدّ الحدث السوريّ جرحًا نرجسيًّا ببعض المعاني والأبعاد التي ذكرنا، وهو مفتوح على استجابات وتغيرات عميقة. والجرح السوري وليد الصدمة، ليس بوصفه حدثًا "بدئيًّا" و"حراكًا اجتماعيًّا"، وإنما بتطوراته ككل، وبأبعاده الماديّة والمعنويّة، وتداعياته المباشرة وغير المباشرة.

عندما تحدثُ الصّدمة على هذا النحو، فإنّ "برادايغم" التّكوين الاجتماعيّ والسياسيّ يتعرض لاختلالات خطيرة، قد تودي به كلية، بسبب عجزه عن مواجهة اختناقات واقعيّة وتحديات وأوضاع مستجدة، وفشله في التّعاطي معها أو حتى تفسيرها، وهو ما يتطلب إعادة النّظر فيه وربما تفكيكه بكيفية أو أخرى. ويحدث ذلك عندما لا يزال البناء الاجتماعي محتفظًا بحدٍ أدنى من الفعالية والتماسك الداخليّ والدفاع الذاتيّ. وقد وصلت الأمور لدى الكثيرين إلى ما يشبه "القطيعة" مع النظام و"الخروج" عليه[٢٠].

---

[١٩] – جورج طرابيشي، **من النهضة إلى الردة: تمزقات الثقافة العربية في عصر العولمة**، (بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠)، ط١، ص ٩.

[٢٠] – انظر وقارن: عزمي بشارة، **في الثورة والقابلية للثورة**، ط١ (الدوحة/بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١١)، مواضع مختلفة؛ وجورج طرابيشي، **في ثقافة الديمقراطية**، ط١ (بيروت: دار الطليعة، ١٩٩٨)، ص ٢٦–٣٦.

ولكن ردَّات الفعل الأهم والأوسع نطاقًا، ربما أدت –بفعل احتدام الصراع والتحريض والتجييش– إلى "تنبيه" أو "استثارة" ديناميات الدفاع الذاتيّ في مواجهة الحدث، واستنفار آليات العمل والموارد الذاتيّة والموضوعيّة لاحتواء أوضاعٍ جديدة قد تشكل مصدر تهديد وجوديّ أو كيانيّ[٢١].

لقد بدت ديناميات "التّخندق" النفسيّ والاجتماعيّ والسياسيّ من خلال أنماط الشعارات التي تتردد في التظاهرات. وانكشفت الأمور على استهدافات مثل القتل والتهجير والاختطاف على خلفية مذهبية. وقد تطورت الأمور –في بعض الأحيان– إلى شن اعتداءات أو غزوات بهدف الاستيلاء على النساء والأطفال والممتلكات كـ"سبايا" و"غنائم".

كانت اللّحظة الملائمة تمامًا لاستحضار ذلك الإرث الغزويّ الداخليّ، وليس الطائفيّ أو الفوضويّ فحسب، وهو من سمات الحياة في التاريخ المحليّ والإقليميّ[٢٢]. وبدت الاتجاهات "النكوصيّة" حادة هنا ومتوترة إلى حد كبير، بكل المخزون الطائفيّ والقبليّ والمناطقيّ. وهو ما يشير إلى بروز دوافع نفسية وإدراكية مَرَضِيَّة وليس عقلانية وصحّيّة.

لقد ذكرنا حتى الآن النّمط الأكثر سلبية من بين أنماط الاستجابة المحتملة أو المفترضة للصدمة والجرح النرجسيّ، وهو الاستجابة النكوصيّة والمتوترة. وثمة نمطان آخران، نجد تجليات هامشيّة لهما في المشهد السوريّ؛ الأول هو "إنكار" الأزمة (وقد تناولنا جانبًا من الموضوع في فقرة سابقة)، أو بالأحرى إنكار المخاطر المحتملة، وعدم الاعتراف بـ "الجرح"، والإصرار على تقديم رؤية "وحيدة البعد"، ومن ذلك قول "الموالاة" إنّ ما يجرى هو "مؤامرة" لن تنال من عزيمتهم، وسيتم تحطيمها؛ وقول المعارضة إنّه "ثورة" وسوف تنتصر.

---

[٢١] – جورج طرابيشي، **المثقفون العرب والتراث ...، مرجع سبق ذكره**، ص ١٩.

[٢٢] – انظر مثلًا: محمد جابر الأنصاري، **تكوين العرب السياسي ومغزى الدولة القطرية**، ط (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٥)، ص ٣٩–٦١.

أما النمط الثالث، فهو الأقل حضورًا، وهو يريد استجابةً نشطة وفعّالة وموضوعيّة، باعتبار أنّ ما يجري هو فرصة وتهديد في الآن نفسه، وأنّه سيرورة وعملية، وأنّ الأمور تتوقف على حصيلة عددٍ من العوامل والفواعل الداخليّة والخارجيّة، السوريّة وغير السوريّة.

وإذا كان للنمطين السابقين تجليات سياسيّة ومؤيدون وحراك اجتماعيّ ذو بال، إلا أنّ النمط الثالث يبدو كأنّما لا تجليات سياسيّة له، وهو ككل الخيارات العقلانيّة، لا يثير حماسةً واستقطابًا، وخاصةً في فترات الأزمة، وقد يكون من سماته الأهم أنّ كل الأنماط الأخرى "تَدَّعِيه".

خامسًا: حدّ فاصل

تشكل الأحداث الأولى "النّقطة الحرجة" بين ما كان في الماضي وحتى لحظة قريبة، وما يقوم اليوم، وكأنّما المشهد اليوم يعدّ "حدًّا فاصلًا" في وجود سوريّة وتاريخها. وما كان "ملائمًا" أو "صالحًا" بالأمس لم يعد كذلك اليوم.

ونركّز على أبعادٍ رئيسةٍ لمفهوم "الحدّ الفاصل"، وتتمثل في البعد الزمنيّ المتعلق بالزمن البدئيّ كنقطة (أو لحظة) فاصلة بين ما قبل وما بعد؛ والبعد المادي المتعلق بالاحتجاجات والمواجهات والعنف المفرط وتداعياته الاجتماعيّة والاقتصادية.. إلخ؛ والبعد الرمزي المتعلق بأن ما جرى حتى الآن هو "تفكيك" لبنى نفسيّة ورمزيّة وأنماطِ قيمٍ وسياساتٍ وتنظيماتٍ وقوى سياسيّة قديمة و"بروزٌ" (أو "نهوضٌ") لبنى جديدة.

وقد شكّل الحدث السوريّ "حدًّا فاصلًا" ببعده الخَلاصيّ، وبعده الارتداديّ أو النُكوصيّ، ولكنه ليس "حدًّا قاطعًا". وهو حدٌ فاصلٌ بالمعنى التطوريّ والانتقاليّ، وهذا يحيل إلى مقاربتين لمعنى الحد الفاصل، هما "عقدة غورديان" و"الانفجار العظيم"، وسنأتي على ذكرهما لاحقًا.

البعد الخلاصيّ

لا يعني الحدث السوريّ أنّ ما بعدُ يختلف عما قبلُ من ناحية التغييرات والتحوّلات الميدانيّة والسياسة العمليّة فحسب، وإنما هو كذلك أيضًا فيما "يَعِد به"، أي ببعده "الخَلاصيّ"، فهو فاصلٌ قاطعٌ في الزمان والمكان، وفي اللّغة والرّموز والمسميات والسلوك، إلى جانب اعتباره أمرًا "أسطوريًّا" أو "ميثيًّا".

وقد أثار ذلك قُدرةً عالية على التعبئة النفسيّة والاجتماعيّة لقطاعات من الناس، فيما يشبه "الوعد" أو "يوم الفتح" كما في الرؤية الدينيّة والسرديات والأيديولوجيات الكبرى التي تجعل الحدث الآن – الخاص بها طبعًا – أمرًا "فائقًا" و"كلّي القدرة"، ومن ثمّ، فهو "يجُبُّ" ما قبله، وهو "ولادةٌ جديدة"، "قبلها لا شيء، ومن بعدها كل شيء"[٢٣].

البعد الارتداديّ أو النُّكوصيّ

الحدث السوريّ هو –في بعض جوانبه– تطورٌ ارتداديّ إلى الماضي، سواء أكان الأمر وفق مرجعيّة ثقافيّة وتاريخيّة كما لدى التيارات الإسلامويّة، أم وفق مرجعيات البنى الاجتماعيّة التقليديّة–المحدثة مثل القبليّة والقبليّة السياسيّة وكذلك الولاءات المناطقيّة، أم وفق مرجعيات البنى الإثنيّة والفرعيّة المحكومة بمدارك تهديد وجوديّة.

---

[٢٣] – انظر في هذا المعنى : جورج طرابيشي، **في ثقافة الديمقراطية**، مرجع سبق ذكره، ص ٢٦.

وهنا تبدو الأحداث "البدئيّة" في مناطق احتقان ذات ميول أو اتجاهات محافظة؛ والتكتيكات الدينيّة والمذهبيّة (في انطلاقها من الجوامع مثلًا)[٢٤]، مؤشراتٍ على ديناميات جديدة أو مستحدثة في الحشد والتنظيم السياسيّ.

وقد أدّى ذلك إلى استقطاب سياسيّ معاكس –ولكن من دون اتباع تكتيكات سياسيّة معاكسة– لدى التكوينات الدينيّة والمذهبيّة والاجتماعيّة التي شعرت بأنّها مستهدفة، وكذلك في الأوساط المدينيّة –السنية على نحو خاص–، ليس لأنّها غير متدينة، أو لأنها مؤيدة للنظام، وإنما – وهناك عوامل أخرى عديدة– بسبب مخاوفها من "الفوضى" وتفضيلها الاستقرار[٢٥]، أو بسبب مخاوفها من البدائل المحتملة.

مرحلة فاصلة

لا نتحدث هنا عن "حدٍّ فاصل"، وإنما "مرحلة فاصلة"، وهذا ينسحب على معنى الفترة الانتقاليّة أو السيرورة التي تبدأ بكيفية ما ولكنها لا تكون مكتملة، وأيُّ قول باكتمالها هو نوعٌ من البتر والقطع لمسارها، وهذا يذهب بها مذاهب حدّية كالتي سبق الحديث عنها، خلاصيّة أو نكوصيّة، ولا تكون هذه المرحلة الفاصلة خارج هذين الاحتمالين، وإنما في حالة "بينهما".

"عقدة غورديان"

من الممكن تشبيه ما يجري بأسطورة يونانية قديمة معروفة باسم "عقدة غورديان"، وجاء في إحدى رواياتها أن "غورديوس" ملك فريجيا (تركيا الآن) قد صنع عقدة من حبل، وأحكم شدها،

---

[٢٤] – جرى استخدام الجوامع في تنظيم التظاهرات وإدارة الاحتجاجات والأعمال الأخرى المرتبطة بها، وقد أثار ذلك جدلًا واسعًا كونه مؤشرًا على "أسلمة" أو "مذهبة" قوى واتجاهات معينة للاحتجاجات، فيما رأى آخرون أنّ سبب "مركزيّة الجوامع" في الاحتجاجات السورية هو إغلاق المجال العام و"السّاحات" أمام الممارسة السياسيّة.

[٢٥] – انظر: "برهان غليون: الشعب السوري هو من يقرر مصير سوريا وليست القوى الأجنبية"، حوار: ابتسام عازم، **قنطرة**، ٢٠١١/٧/١٣.

وأَلغَزَها بكيفية استعصت على الحل، وشاع أنّ من يستطيع حل تلك "العقدة" سيتمكن من السيطرة على الشّرق. وقد بقيت تلك العقدة حتى تمكّن الإسكندر الأكبر من "حلّها"، ولكنه ربما فعل ذلك بالخروج عن الاشتراطات (غير المعلنة) المطلوبة أو المفترضة لـ"الحل"، إذ أعمل سيفه فيها لـ"يفكها" أو "يقطعها" بضربة واحدة.

وتشير عقدة غورديان –بالطريقة التي حُلّت بها– إلى أنّ الأزمات والعُقَد حين تصل إلى نقطة أو مستوى من التعقيد والغموض والإرباك، فهذا يعني أنّ مدارك التعاطي معها وأدواته وكيفياته لم تعد قابلة للعمل، وأصبحت "منتهية الصلاحية"، وأنّ الأمور تتطلب حسمًا من نوعٍ ما، ربما كان فرديًّا أو كاريزميًّا كما في الأسطورة المذكورة، أو مجتمعيًّا كما في حالات الثورة مثلًا[٢٦]. وهو ما يجعل منها "حدًّا فاصلًا" بين ما كان من قبل وما يكون من بعد.

ولكن، ليس في الظواهر الاجتماعيّة والسياسيّة الكثير من "الأحداث" التي يمكن التمييز فيها بين ما قبل وما بعد، وربما يكون الحال أقرب إلى "فواصل" بين طيات تطوريّة، يمكن معها التمييز بين فترة وأخرى، ليس بالاستناد إلى "حادثة" بعينها، فهذا مما يصعب تعيينه في السياسة، وخاصةً إذا كان المطلوب هو الوقوف على "تحديد" حاسمٍ للأمور.

الانفجار العظيم (Big Bang)

إنّ نظريّة "الانفجار العظيم"، هي إحدى النظريّات المطروحة في تفسير نشأة الكون[٢٧]. وتقول إنّ الكون انبثق من "حالةٍ بدئيّةٍ" ووضعيّةٍ "حارّةٍ" و"شديدة الكثافة"... إلخ. والواقع أنّ "الحدث"

---

[٢٦]– عزمي بشارة، **في الثورة والقابلية للثورة**، مرجع سبق ذكره. ولمطالعات عن الثورات الراهنة وسياقها العالمي، انظر: علي حرب، **ثورات القوّة النّاعمة في العالم العربيّ: نحو تفكيك الدّيكتاتوريّات والأصوليّات**، ط١ (بيروت: الدار العربيّة للعلوم ناشرون، ٢٠١١).

[٢٧] انظر مثلًا: ستيفن وينبرغ، **الدقائق الثّلاث الأولى من عمر الكون**، ترجمة وائل الأتاسي (دمشق: دار الرسالة، ١٩٨٦).

السّوري يقارب هنا المفهوم الفيزيائيّ عن "الانفجار العظيم". ويتّضح ذلك بالخصوص عند المقارنة بين "العطالة" و"السّكونية" الثقيلة و"الغموض" و"الجمود" في الحياة السياسية وفي العلاقة بين الدولة والمجتمع، من جهةٍ؛ وبين "انكشاف" الظاهرة السورية على العالم، وحضورها الدائم في وسائط الميديا العالميّة، والتغيير غير المسبوق في المزاج السياسي، والخروج عن "التابوات" و"المحظورات"، وعلى ما كان "مكبوتًا" و"مسكوتًا عنه"، وما كان "من المستحيل التفكير فيه" في جوانب عديدةٍ من الظاهرة السورية المعاصرة، من جهةٍ أخرى.

ويتّسم الحدث السوري ببعض سماتِ وأبعاده المفهوم المذكور أعلاه عن "الانفجار العظيم"؛ إذ اندلعت التظاهرات والاحتجاجات في بيئةٍ "حارّةٍ"، ومناطق احتقانٍ واختلالٍ تنمويٍّ وإجهادٍ كبيرٍ، بسبب "فشل" السّياسات العامة.

ويمكن القول إنّ الصّدام الموضعي أو الجزئي بين السلطات من جهةٍ، والوجهاء والأعيان وبعض التجّار والشبكات الاجتماعية– الاقتصادية من جهةٍ أخرى؛ كان بمنزلة "حالةٍ بدئيّةٍ" و"شرارة اشتعالٍ". وقد وجد سوريّون آخرون أنّ لديهم الأسباب نفسها ليفعلوا الشيء نفسه؛ وهذا ما ظهر في درعا وحمص مثلًا. وما لبثت الأمور أن تطوّرتْ –بفعل عوامل عديدةٍ– إلى ظواهر مناطقيّةٍ متعدّدةٍ أوّلًا، ثم إلى ظاهرةٍ سوريةٍ وإقليميةٍ ودوليةٍ.

سادسًا: خلافي

أن يكون ما يجري في سورية "حدثًا"، فهذا أمرٌ "خلافيٌّ" بطبيعته وأسبابه ومعانيه وتبعاته وماهيته النّشطة؛ فكيف سيكون الأمر إذا ما أصبح ذلك أزمةً مفتوحةً على عوالم غامضةٍ، وتشكّل تحديًا بالتّمام للمجتمع والدّولة؟ وإلام سيؤول إذا ما كان يتوسّل مختلف الأدوات والوسائط؛ في بيئةٍ داخليةٍ وإقليميّةٍ ودوليّةٍ، يشكل العنف أحد أكثر سماتها وضوحًا؟

إنّ المعنى التّلقائي لكلمة / مفهوم "خلافيٍّ"؛ هو أنّ أمرًا ما ليس موضع اتفاقٍ، أو هو موضع خلافٍ بين طرفين أو أكثر. وذلك الخلاف ملازمٌ له من داخله ومن ذاته، ومُرفَقٌ بطبيعة الوجود الاجتماعي والسياسي، وبطبيعة تلقّيه؛ بكل ما يعنيه ذلك من نسبيّة الحقيقة، واحتماليّتها.

ويقتضي ذلك القبولَ بوجود من يختلف عنك أو تختلف عنه في أمورٍ كثيرةٍ، ماديّةٍ ومعنويةٍ، أو إنسيّةٍ أو طبيعيةٍ، أو حتى ميتافيزيقيّةٍ.

الخلافية البسيطة والشديدة

تكمن مشكلة الخلافيّة في الحدث السّوري، وانطلاقًا من محدِّدات الأزمة، وربما من مخرجاتها؛ في أنّها تجعل الحلول صعبةً أو شبه مستحيلةٍ، وهذا صحيحٌ نسبيًّا أو مؤقّتًا. والجانب العميق للأمر، يتمثّل في أنّه لو كان الاختلاف ممكنًا؛ لما وقع الحدث السّوري ربّما، ولما كانت هذه الدّراسة وغيرها من الكتابات التي تتناول المشهد السّوري الرّاهن.

علينا النّظر للخلافية بعدِّها أمرًا ملازمًا للأمور، ومسألةً طبيعيةً وتلقائيّةً أو بديهيةً. والأوْلى أن تكون كذلك في السياسة. قد لا يسهل وجود ذلك في بيئةٍ متوتِّرةٍ وثقافةٍ داخليةٍ وإقليميةٍ متأخِّرةٍ؛ لأنّها تشكِّل بيئةً شرطيةً. فكيف يمكن أن تنمو مدارك تداوليّةٌ تؤمن بالاختلاف والتعدّد ونسبيّة المعرفة والحقيقة، وبالتّسويات والحلول الوسط؛ في بيئةٍ تكاد لا تتوفّر على شيءٍ من هذه الشروط تقريبًا؟

هنا يمكن أن تتدرّج الأمور وتتشكّل بين خلافيّةٍ بسيطةٍ وخلافيةٍ مركّبةٍ. ويُظهر المشهد السوري أنماطًا حادّةً نسبيًّا من الخلاف حول ما يجري، وتتطوّر الأمور إلى مواجهاتٍ مفتوحةٍ، وإلى نوعٍ من الخلافيّة الحادة. وهنا خروجٌ عن المعنى الأصلي، يطال الموضوع بكلّيته؛ إذ يصبح للخلافِ مرادفٌ وحيدٌ تقريبًا، وهو "الاستهداف". ويتحوّل الأمر إلى نوعٍ من الدوغمائيّة المنغلقة؛ بكل ما يعنيه ذلك من استبعادٍ وإقصاءٍ معنويّيْن وماديّيْن للآخر.

خلافية دوغمائيّة

تصدر الخلافيّة الحادّة أو الصّدامية عن "عقليةٍ دوغمائيّةٍ"، تحدّث عنها "ميلتون روكيش" بوصفها نظام تفكيرٍ واعتقادٍ، تصدر عنه أيضًا أنماطٌ مختلفةٌ ومتفاوتةٌ من السلوك. وهو نظامٌ

يعتمد بالأساس على تشكيلةٍ معرفيةٍ وعقديةٍ مُغلقةٍ، قليلًا أو كثيرًا[٢٨]؛ تتمحور حول لعبةٍ مركزيّةٍ من القناعات (أو الإيمان اليقيني) ذات الخصوصية والأهميّة المطلقة. والدّراسة لا تحاول بهذه المقاربة "تطبيق" أو "إسقاط" الدوغمائيّة كإطارٍ أو كنظام تفكيرٍ على الحدث السوري بكلّيته، ولا "حصر" هذا الحدث في بناءٍ عقديٍّ أو دوغمائيٍّ صارمٍ، فهذا لا يصحّ هنا. ولكنّنا نحاول إضاءة جوانب من الذّهنية الحاكمة للسياسات الرّاهنة تجاه الحدث.

ويمكن النظر في تجلّياتٍ عديدةٍ تدلّ على أنّ الخلافية النشطة تجاه ما يجري في سورية؛ تحكمها سياساتٌ وفواعل دوغمائيّةٌ متفاوتةٌ. وهي تُظهِر كيف أنّ العنف الماديّ والرّمزي هو "سيد الأحكام". وهكذا تجلّتْ الخلافيّة الثقيلة أو الدامية من خلال مؤشّراتٍ عديدةٍ، ومن الأمثلة عليها:

١- الفجوات التي تزيد اتساعًا بين الأطراف المعنية بالمشهد السوري في الداخل والخارج. وكيف أنّ كلّ طرفٍ صار "يقيم" الجدران والأسوار بين ما يؤمن به وما يؤمن به الآخرون، وهو يُحدث تركيزًا نشطًا على تصعيد عوامل النّزاع بين "الأنا" و"الآخر". كما يعمل على "إخفاء" أو "إنكار" كلّ ما يمكن أن يدلّ على تناقضٍ أو خللٍ أو أخطاء أو ثغراتٍ أو مواقف سلبية لدى "الأنا"؛ مقابل إبراز كلّ ذلك وإظهاره إذا ما تعلّق الأمر بـ "الآخر". ويحدث أن يجزم كلّ طرفٍ بصحّة محاجّاته وصدق مواقفه وإطلاقيّتها؛ فيما يُرمي "الآخر" بكلّ الصفات والأحكام السلبية التي يعطيها صفة الإطلاق أيضًا.

- وهنا يحدث نوعٌ من القبول الضّمني بالتّناقضات الحاصلة لدى "الأنا"، و"السكوت عنها"، وتكذيب ما يقوله الآخر عنها؛ بحكم أنّ جميع ذلك استهدافٌ وكذبٌ. ولا يشعر الدوغمائيّ اليوم بأيّ مشكلةٍ في ما يقوم به.

---

[٢٨] نعتمد هنا في تناول مفهوم "العقلية الدوغمائيّة" أو "المغلقة"، على عرضٍ مكثّفٍ لآراء "جان بيير ديكونشي" و"ميلتون روكيش" بهذا الخصوص في: هاشم صالح، "بين مفهوم الأرثوذكسية والعقلية الدوغمائية"؛ وهو مقدّمة ترجمته لكتاب: محمد أركون، **الفكر الإسلامي: قراءة علمية**، ترجمة هاشم صالح، ط٢ (بيروت: مركز الإنماء القومي، ١٩٩٦)، ص ٥ -١٦.

٢- هنا أيضًا، نجد رفضًا مستمرًّا لفكرة الحوار؛ سواءً أكان رفضًا مباشرًا وقطعيًّا في المبدإ، أو رفضًا غير مباشرٍ[٢٩]؛ وذلك من خلال اشتراطاتٍ مسبقةٍ حول الكيفيات والإجراءات والضمانات والسقوف والأولويات... إلخ. ذلك أنّنا "نحن" فقط من "نملك الحقيقة"، ونحن من "نمثّل الشعب"، ولنا "القوامة" أو "الحق في القوامة" على أمر البلاد.

٣- هنا لا تتحدّث "الموالاة" مثلًا عن معارضةٍ؛ وإنّما عن "معارضاتٍ". وعلى الرّغم من حديث النّظام عن معارضةٍ في "الدّاخل" و"الخارج"، "وطنيةٍ" و"متآمرةٍ"، "سلميةٍ" و"مسلّحةٍ"...؛ فإنّه لا يميِّز جدّيًا بين الأطياف المختلفة. ومثلما أنّ المعارضة، ليست على نسقٍ واحدٍ ولا قلبٍ واحدٍ؛ فإنّ فيها من لا يميِّز بين "الموالاة" وبين "النّظام"، ومن يعتبر "النظام" و"الدولة" شيئًا واحدًا.

٤- من المفترَض أن تكون الأولويّة والقوامة مسنَدةً للأفكار الرئيسة، التي تبرّر وجود كلّ طرفٍ، وللقضايا الوطنيّة ومصلحة الشعب...إلخ. ولكنّ الانخراط في المنافسة البيْنيّة والدّاخلية والخارجية؛ قد أدّى إلى التّركيز بدلًا من ذلك على الأفكار الهامشية أو الفرعية أو الوظيفية. وأصبحت قواعد اللّعبة و"قضيّتها المركزية"، هي الإمساك بالسلطة أو "الوثوب" عليها، تحت عناوين مختلفةٍ.

وتذهب الأمور باتّجاه منطقٍ "صفري"، أو منطق "الفرقة النّاجية"؛ بالمعنى الدّيني والمذهبي، كما بالمعنى السّياسي. وهذا يحيل إلى ثقافةٍ متمركزةٍ على الذّات، ورافضةٍ للآخر. وقد تذهب في ذلك إلى إلغائه سياسيًّا وحتّى جسديًّا.

وتجد في سورية اليوم، تنويعاتٍ وأطيافًا متعدِّدةً، ليست مختلفةً كثيرًا من حيث المعنى؛ بل إنّها أقرب إلى "التّكرار التفاضلي"، و"التّعزيز البياني" أو "البلاغي" لهذه الخلافيّة الشديدة التي

---

[٢٩] إبراهيم الأمين، "في الأزمة السورية: انقسام طائفيّ حادّ ومأساة أهلية وانهيار اقتصادي"، **الأخبار**، ٢٠١١/٩/٢.

نتحدث عنها. ولكنّ الأمور تميل إلى الانتظام في مسارَيْن عامّيْن، على شكل استقطابٍ متزايدٍ في ثنائيةٍ رائجةٍ؛ مثل "معارضة– موالاة"، "ثورة– مؤامرة"... إلخ. وهنا تنتقل "المسمّيات" من التعبير عن مواقف مختلفةٍ تجاه ما يجري، إلى عناوين وربّما هوياتٍ.

المنزلة بين المنزلتين

لعلّ أوّل ما يجب القيام به، هو الإسراع إلى تصحيح خطإٍ فادحٍ؛ وهو اعتبار الأمور وكأنّها محكومة بثنويةٍ أو مانويّةٍ (سلطة – معارضة)، تحكمها لعبةٌ واحدةٌ، وواضحةٌ وصريحةٌ. ذلك أنّ المشهد السّوري ليس بهذا "الوضوح"، كما أنّ "الاستقطاب" الحادّ الذي يوحي به الكلام السابق؛ هو غير موجودٍ تمامًا.

ومن المحتَمل أنّ الذّهنية الدوغمائيّة "تهيمن" على المجال السوري؛ ولكنّها لا تحكمه أو لا تمسك به بالكلّية. وعلينا أن نوضّح ذلك بالحديث ليس عن تنويعاتٍ وفروقٍ –وحتى تياراتٍ– داخل الحراك الاجتماعي والسياسي، وحتى داخل النظام والمعارضة؛ وإنّما بالحديث عن شرائح أخرى تقع "خارج" دائرة الاستقطاب المذكورة، وربما "خارج" اللّعبة الرّاهنة، أو ربّما تفضّل أن تمارس "لعبتها" هي.

ثمّة "فواعل" عديدة على الأرض، وسورية الآن ملعبٌ يكاد يضيق باللّاعبين، وينوء بأعباء "اللّعبة"؛ لأنّها تفوق طاقة تحمّله وقدراته. والنّظام هنا لا يعمل / أو لا يلعب منفردًا، بخلاف حاله في الماضي وحتى وقتٍ قريبٍ. فهناك اليوم حراكٌ اجتماعيٌّ وسياسيٌّ، وهناك معارضةٌ. ويشكّل ذلك طيفًا متعدّدًا من اللّاعبين الذين يتفاوت حضورهم وتأثيرهم الاجتماعي والسياسي في الداخل. وإلى جانب أولئك، يوجد لاعبون آخرون كُثُرٌ في البيئة الإقليمية والدولية.

وطالما أنّ الحديث منصبٌّ على "ملعب"، فلا ننسى "الجمهور" الذي تجري المنافسة من أجل كسبه أو ادّعاء تمثيله. وهو –على عكس ما يُقال– لا يكتفي بالوقوف على "المدرّجات" من أجل

"الفرجة"[٣٠]، أو "المراقبة"[٣١]؛ وإنّما "يشارك" في "اللّعبة". بل إنّه اللّاعب الرئيس والمُعوَّل عليه في ما يجري. صحيحٌ أنّه مُوزِّع الولاء، وثمّة من يُغَيِّر مكانه أو موقفه، ويبتكر أدواته...؛ لكنْ هنا يكمن الرّهان الأكبر.

وتجد في الخطاب السوري اليوم نقدًا متزايدًا لهذه الشّريحة الموصوفة بـ "الرّمادية"، أو لأولئك الذين يقفون "في منزلةٍ بين المنزلتين" بالمعنى السياسي. وهؤلاء هم –في الوقت نفسه– موضوع المنافسة بين الطرفين، طالما أنّ كلّ طرفٍ قد ضمِن تأييدًا "نهائيًّا" تقريبًا، من جهة الشّريحتين الأكثر قابليةً للانخراط في الاستقطاب السياسي والاجتماعي حول الأزمة.

وهذا يعني أنّ من يقف "في منزلةٍ بين المنزلتين" أو "يُرجِئ" أمر الصّراع إلى "الله"، أو "إلى أجلٍ ما"، أو إلى "المجهول"، أو إلى بقاء "الأصلح" بالمعنى الدّاروينيّ؛ سوف يكون محكومًا تبعًا لعوامل عديدةٍ بحتميّة "إمّا وإمّا". وعليه في نهاية المطاف أن يختار الاصطفاف إمّا مع هذا الطرف أو ذاك، وستحكمه القاعدة المعروفة في مثل هذه الظروف: "من ليس معنا فهو ضدّنا".

سابعًا: جدل "الواقعي" – "الافتراضي" أو جدل "الأصل" – "الصورة"

لعلّ أهمّ صفةٍ للظّاهرة السّورية اليوم، هي أنّها ظاهرةٌ "ميديائيّةٌ"، بكل المعاني والتّجليات الراهنة للواقع السياسي والافتراضي. وقد تحوّلت سورية إلى عنوانٍ "مُتَلْفَزٍ" ومشهدٍ لـ "الفرجة". والواقع أنّها وُضِعت "تحت المجهر"؛ ليس لتَقصّي ما يجري فيها وتَفحُّص ما حولها، وإنّما للتدخّل في ما يجري، وإعادة تقديمه بكيفياتٍ مختلفةٍ، تسكت عن أشياء وتُفصِح عن أخرى، وقد تتنكَّر لأشياء وتختلق أخرى. هذا إلى جانب تأويلٍ نشطٍ للأحداث؛ بما يجعل الظاهرةَ السّورية موضوعًا

---

[٣٠] عن مفهوم "الفرجة"، انظر: جي ديبور، **مجتمع الفرجة: الإنسان المعاصر في مجتمع الاستعراض**، ترجمة أحمد حسان، ط١ (القاهرة: دار شرقيات، ١٩٩٤).

[٣١] عن مفاهيم المراقبة والمعاقبة الواردة، انظر: ميشيل فوكو، **المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن**، ترجمة علي مقلد، ط١ (بيروت: مركز الإنماء القومي، ١٩٩٠).

"ميديائيًا" تفيض أحداثُه وتأويلاتُه واتجاهاتُه بما يتجاوز "معنى" الحدث نفسه، وبما يفوقُ قدرةَ السوريين على تحمله.

ويُشكِّل الحدث السّوري حيِّزًا من التفاعل والسجال النشط بين ما يجري في الواقع وبين المدركات والاستجابات حوله. أي إنّه عبارة عن فعاليةٍ إدراكيةٍ وذهنيةٍ في المقام الأول، من حيث الوزن والتأثير. وهذا أمر خلافي بكلّ تأكيد، وهو مفتوح على حجم التطورات. هذا إضافةً إلى أن البعد "الميديائي" يشكِّل وزنًا نوعيًّا كبيرًا بما لا يمكن التقليل منه أو تجاهله. وهذا يدل على أن الواقع حيِّز احتمالي مفتوح أمام تفهمه والتأثير فيه، وربما "هندسته"... وهذا هو الأمر الحاسم تقريبًا حتى الآن في فهم المشهد السوري وتحليله.

الواقعي والافتراضي في السياسة

أدّت ثورة المعلومات وتطور وسائط الاتصال، إلى تغييرٍ كبيرٍ في نظرة النّاس إلى الواقع والسلطة والقوة والدولة... إلخ. وأدّت تلك الثّورة –في أهمّ تطورٍ بالنسبة إلى المشهد السوري– إلى التحرّر من "احتكار" السلطة لمصدرٍ من مصادر القوة والتّحكم، وهو الإعلام والمعلومات والتراسل بين الناس في الداخل والخارج. وقد أصبح السياسي متداخلًا مع الإعلامي أو الميديائي بكيفيةٍ غير مسبوقةٍ. وأمكن عدّ "الناشط السياسي" أحد وجوه العالم الافتراضي (والواقعي).

إنّ الواقعي –من منظور النظام السياسي– هو أمرٌ "حقيقيٌّ" ممتلئٌ؛ وأمّا الافتراضي فهو "وهم". وهو كذلك؛ لأنّ النّظام لا يستطيع "الإمساك" به، أو "القبض" عليه عند الضرورة. وهكذا فإنّ ما يبدو طليقًا وقادرًا على "الاتصال"، هو الذي "ينتصر"؛ لأنّه يشكِّك في الواقع، ويزيل "البساطة" و"السطحية" عنه، و"يفكّكه". وهو بالأحرى "يقبض" عليه، ويعيد تعريفه وتشكيله وتوجيهه. وأهمّ وسيلة لديه، هي الاستعانة بـ "الافتراضي" أو "الصورة".

أولوية "الافتراضي"، أولوية "الصورة"؟

هذا يبرِّر نسبيًّا القول بأنّ ثمة "أولوية" أو "قوامة" نسبية لـ "الافتراضي" أو "الصورة" على الواقعي، في الظاهرة السورية. وقد كشفتْ التطوّرات –سواء الواقعة في سورية أو في بلدان عربية أخرى–

عن تفاوتٍ في الوزن النسبي للبعدين الواقعي والرقمي. ذلك أن الوقائع والتطورات الميدانية؛ لا تشكّل إلّا جزءًا من كلية "الظاهرة" السورية الراهنة، على أهمّيتها.

ويبدو أن جدل الواقعي– الافتراضي، أو بالأحرى "قوامة" أو "أولوية" الافتراضي على الواقعي؛ تؤدّي إلى "فجوة" تزيد أو تنقص، بين تجليات المشهد السوري، وبين وقائعه وفواعله ومحدِّداته العملية والحقيقية أو الواقعية. وهكذا، فإنّ المواجهات الافتراضية و"الميديائية"؛ تتّخذ جملةً من الوسائط وسيلةً، وتُحَرِّك نوازع، وتستثير انتماءاتٍ وعصبياتٍ وهوياتٍ مختلفة، بعضها حداثي ووطني، وبعضها –وقد يكون أكثرها– ما قبل حداثي أو ما قبل وطني.

"اختفاء الواقع"

إن ما يحدِّد الموقف ليس "الحقيقة الواقعيّة"؛ وإنّما ما يسمَّى بـ "الحقيقة الافتراضية". وتتّجه الأمور إلى نوعٍ من "التحفيز" و"التحريض" و"الأدلجة" التي تدفعنا ليس فقط إلى "تلقّي" ما "نراه" أو "نسمعه"؛ وإنما أيضًا لعدِّه "حقيقةً"، وربما لـ "العمل" على تحقيقه في الواقع كذلك. وإن تعذر جميع ذلك، فيكفي عدّه واقعًا.

هذا يفسِّر كيف أن الإعلان عن تظاهرة أو نشاط ما في مكان ما، والآن تحديدًا؛ يدفع الناس إلى قصد ذلك المكان، بغية "المشاركة" أو "الفرجة"، وهو ما يعني الزيادة في أعداد "الحضور". كما يفسّر كيف أنّ الحديث عن الصّدام أو عن توقع الصّدام، يحدث في الواقع[٣٢]. وما يجري هنا، هو سعي المتلقي لـ "التشبّه بـ" الصورة التي تتحدث عنه، أو لـ "مطابقتها" أو للعمل بـ "مقتضاها"[٣٣].

---

[٣٢] يتحدث الإعلام الرسمي عن "أمر عمليات" قصديّ، يبث عبر الإعلام لمجموعاتٍ معينة. وقد يصح هذا في منطق المؤامرة أو الحرب الدّائرة التي يكون فيها للإعلام والعالم الميديائي دور فوق العادة أو "فوق الواقع" بتعبير بودريار.

[٣٣] عبد السلام بنعبد العالي، **الكتابة بيدين**، ط١ (الدار البيضاء: دار توبقال، ٢٠٠٩)، ص ٢٧.

وهنا تكمن دينامية / آلية التحول من "الموقف" أو "الصورة" أو "الافتراضي"، عبر وسائط الميديا المختلفة. ذلك أن "الصورة" هي في كثير من الأحيان "دعوة" و"توجيه"؛ وليست فقط "إعلاما" أو "إعلانا" عن أمر ما. وما يحدث هو قبل كلّ شيءٍ، تكوين رأي جمعي حول "الموضوع"، مثلما تحدث أشكال أخرى من التلقي:

- تلقٍّ ذو سمات "حركية" و"تحفيزية"، وليس فقط لـ "الفرجة".
- ثمة جانب من الجمهور يمكن أن يتحول موقفه أو حضوره من "متفرج" إلى "مشارك"؛ متأثرًا في ذلك بالمشهد الجمعي.
- الجانب الحركي والنشط من المتلقّين المعنيين، الذين يعتبرون الصورة "بلاغا" و"توجيها" أو "دعوة" للعمل.
- تلقّي السلطات (وأيّ جماعات أخرى ذات صفة مشابهة) للموضوع عبر وسائط الميديا، بشكل مباشر أو غير مباشر. وقيامها بإجراءات استباقية، لا تلبث أن تصبح جزءًا من "المشهد"، وأحيانًا ما تكون الجزء الأهمّ!

تتحوّل "الصورة" إلى استجابات واقعية وميدانية، مختلفة ومتفاوتة الحضور والتأثير؛ وخاصةً إذا وقع "إخراجها" عبر الصور ومقاطع الفيديو وحتى من خلال "البث المباشر". ونحن نتحدث عن عملياتٍ وعن "إخراج" ممنهجٍ؛ وليس عن "تظهيرٍ" للصورة فقط. وما يحدث هو تحول الموقف من صورة "أولية" أو "بدئية"، إلى واقع ثم صورة فواقع؛ وذلك وفق أنماط من التغذية العكسية، والتداخلات بين ما حدث وما يحدث وما لم يحدث وما يمكن أن يحدث.

تخضع الأمور إلى عمليات "هندسة" و"إخراج" قصديةٍ أو مسيَّسةٍ بشكل فائق؛ بحيث تتوافق وسائط الاتصال والمقاصد السياسية على "إنتاج" المشهد على "صورة الواقع" أو "تظهير" له أو "كشفٍ عنه". وفي هذا السياق، يرى جان بودريار، أنّ ما يقدمه الإعلام أو العالم الافتراضي،

"ليس هو الواقع كما هو، ولا هو صورة عنه، بل هو صورة وَلَّدَها الإعلام عن صورة أخرى؛ هي بدورها مولدة عنه"[٣٤]. وبذلك يختفي الواقع، ويظهر "فوق– الواقع".

كيف تتحول الرغبات والميول إلى سلوك في الواقع من أجل تحقيقها؟ أو قلْ، كيف تدفعنا إلى سلوك ما يعدّ ما نتحدث عنه واقعًا؟ إنّنا أمام علاقة جديدة بين الواقعي والافتراضي، ولا سبيل إلى فهمها إذا ما اتّخذنا الفهم التقليديّ للواقع أو للأسباب– النتائج وسيلةً. فنحن "أمام لعبة دائرة انعكاسية، يغدو فيها المعلول علة"[٣٥].

إنّها "لعبة" تبرّر لكل طرف في المشهد السوري أن "يغض الطرف" عن مبررات الطرف الآخر وهواجسه ومخاوفه، بل و"أبلسته" و"تخوينه". ومن ثم، يبرّر ذلك نوعًا من الذّرائعية المتسلطة والإقصائية؛ على اعتبار أن "الغايات النبيلة"، تبرِّر –في حالات الأزمة واللحظات الحرجة والمعارك الكبرى– "الوسائل القذرة".

تنطلق "الحقيقة الافتراضية" أو ما سيصبح كذلك، في طور تحوّلها إلى "حقيقة واقعيّةٍ"، من توصيفات ومقاطع وعمليات "هندسة قصدية"؛ أكثر من انطلاقها من صور واقعية محدّدة حول الأوضاع. وهكذا فإنّ الصور وما يتولد عنها، هي وليدة النظام الإدراكي، ووليدة مسبقات وخيارات ورهانات المرسل؛ أكثر من كونها مُدخلات لديه.

وفي زحمة الأحداث والمقولات والتشابكات والصور وسيولتها؛ فإنّ ما يجري أحيانا هو أن الكثافة والسيولة والإثارة تتزاحم بكيفيةٍ تعيق عملية التدقيق، أو حتى تفحص "أسس اليقين" لدى المتلقي. كما لو أنه يشاهد فلمًا سينمائيًّا؛ إذ يشغله التشويق والإثارة عن التّدقيق في "لا منطق" أو "لا معقول" ما يشاهده. ويتعزز ذلك بجوانب أخرى يضطلع بها علم النفس الإدراكي. فهو يفسّر كيف

---

[٣٤] جان بودريار، **المصطنع والاصطناع**، ترجمة جوزيف عبد الله، ط١ (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٨)، ص ١٧– ١٨.

[٣٥] المرجع نفسه، ص ١٧. وانظر كذلك: عبد السلام بنعبد العالي، مرجع سبق ذكره، ص ٢٧.

أن المتلقي يميل إلى تصديق ما يحب تصديقه؛ مثلما أن القارئ يبحث عما يريد قراءته. ومن ثم؛ فإنه توجد عوامل تعزيزٍ ذاتية أو داخلية لدى المتلقي نفسه، تساعد أصحاب السياسة في تلقي رسائلهم وأدلوجاتهم وحتى أخلاقياتهم.

الدال والمدلول

يشكّل جدل الواقعي– الافتراضي أو الأصل– الصورة، نوعًا من المنافسة أو الصراع المحتدم في المشهد السوري على الإمساك بواحدة من مصادر القوة المؤثرة؛ وهي تحديد مدارك الناس وقناعاتهم، ومن ثم مواقفهم السياسية تجاه ما يجري. وهذا ما جعل العالم الافتراضي يشهد "سيولة" فائقة في مفردات المشهد السوري؛ تتمثّل في أحداث وأفكار وصور وتحليلات ومقاطع ميديائية[٣٦]. كما جعله يتعرّض لكلّ ما يتعرّض له مشهدٌ سينمائيٌّ من مسرحة ومونتاج وإخراج؛ وذلك في سياق تحويله إلى مادة لـ "الفرجة" أو "المراقبة"، كما سبقت الإشارة إليه. وهو ما من شأنه أن يجعل "الصورة" أكثر حضورًا من "الحقيقة" أو "الواقع"؛ ولا نعني صورة سورية بإطلاق، وإنما صورة / أو صورًا محدَّدةً لها.

عندما يتحوّل المشهد أو الصورة إلى واقع، وعندما يجري "تكييف" الواقع وفق رؤى محدّدة، أو"إفراغ تدريجي للواقع من واقعيته"[٣٧]، وعندما تغيب العلاقة أو الصلة بين الدال والمدلول، وبين الواقعي والافتراضي؛ فيمكن عندها العمل على تقديم أيّ شيءٍ، وإقناع الناس به، دون

---

[٣٦] على الرغم من كثرة المواد الميديائية الخاصة بالمشهد السوري على شبكات التواصل الاجتماعيّ ووسائط الميديا المختلفة؛ فإنّها لا تغطي الحدث بكليته. وثمة الكثير ممّا لم يجر "رفعه" على الشبكات الخاصة بالعالم الرقميّ أو الافتراضيّ. وقد يكون الحدث السوريّ في المرتبة الأولى (كحدث سياسيّ) من حيث عدد المواد الخاصة به على شبكة الإنترنت. كما تعد وسائط الميديا المختلفة مجالًا حيويًّا للنشاط السياسيّ الخاص بالحدث السوريّ، على صعيدي "رفع" و"تحميل" أو "التقاط" المقاطع. وهذه من ظواهر الحدث السوريّ، التي تتطلب الكثير من التقصي والتحليل.

[٣٧] – بودريار، مرجع سبق ذكره، ص ٣٠.

النظر في معقوليته أو صدقه أو مواءمته؛ طالما أن لدينا القدرة على التأثير في المخيلة والمدارك والوعي واللاوعي[٣٨].

هنا "لا" تشكِّل الأزمة شيئًا غير الحلّ. وليس ذلك الحلّ إلّا شرطا لازمًا لها أو نتيجة حتمية أو احتمالية لها؛ بل هما شيء واحدٌ. فقد يجري تدمير الدولة والمجتمع خلال المواجهات، بين من يريد "بقاء النظام" ومن يريد "إسقاطه". ومهما بدت الأمور بديهية بالنسبة إلى مراقب ما، في زمان أو مكان ما؛ فإنّها تبدو خلافيّة، وربّما هي بديهية، ولكنْ بمضمون مختلف بالنسبة إلى مراقب آخر. وقد تحدثنا عن تحطيم العلاقة بين العلة والمعلول، وبعدها يصبح كل أمرٍ ممكنًا، وكلّ سياسة جائزة.

ثامنًا: جدل "الفرصة السانحة" – "التحديات الماثلة"

يشكِّل الحدث السّوري "فرصة" و"تحديًا" في الآن نفسه. وهو يثير قدرًا "غير مسبوق" من التجاذب والسجال في الداخل والخارج؛ ليس تجاه ما جرى ويجري فقط، وإنما أيضًا تجاه "ما يَعِدُ" به، أي بما هو "فرصة" وبما هو "تهديد". وقد تناولت الدراسة في فقرات أخرى جوانب من هذا الموضوع، في حين أنّها تركِّز هنا على ما تعدّه فواعل أو محدِداتٍ نفسية وإدراكية تجاه الموضوع في مستويين رئيسيْن؛ الأوّل هو "الفرصة السانحة"، والثاني هو "المخاطر الماثلة".

"الفرصة السانحة"

يستند منطق "الفرصة السانحة" إلى التّداخل الحاصل بين ما يريده الفرد (أو الجماعة)، وبين ما يتوقع الحصول عليه، أو ما يعدّه ممكنًا من بين عددٍ من البدائل. وهذا ما يجعل من السياسة رهانًا مستمرًّا، و"تَحَيُّنًا" دائما للفرص.

---

[٣٨] – المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

وتبدو الفرصة نوعا من التوافق بين "الفاعل" الاجتماعي والسياسي، و"الهدف"، و"المحتمل"، و"البيئة" الزمانية والمكانية؛ بحيث تقترب الأمور من بعضها البعض، بكيفيةٍ تشكّل "نقطة انطلاق" نشطة. وذلك على نحوٍ يجعل الحراك الاجتماعي– السياسي "أمرًا ملائما"؛ بل "شرطًا لازمًا" لتحقيق التغيير. وقد ينظر إلى الأمر انطلاقًا من مبدإ "الإمساك" بالفرصة، وعدم تفويتها، على حدّ القول: "إذا هَبَّتْ رياحُكَ فاغتَنِمهَا".

وهذا من الشروط اللازمة –ولكن غير الكافية– لانطلاق الحراك السياسي، في شكل تظاهرات واحتجاجات وحتى ثورة. وأمّا ما لا يقع الأمر إلّا به؛ فهو توافر عاملَيْن أو فاعليْن نشطيْن آخرين أوّلهما: "الاندفاع" و"الغضب"، الذي يسببه حافز أو حادث مباشر، وثانيهما: إدراك العامّة والقوى النشطة أنّ تلك هي اللحظة الملائمة لـ "التحرك" و"الانقضاض"، إلى جانب المخاوف من "انكشاف النية" وفوات "الفرصة" نفسها؛ ذلك أنّ "الخافقات لها سكون" كما يقول الشاعر[٣٩].

ويعتمد منطق "الفرصة السانحة" في تحفيز الحراك الاجتماعي والسياسي على تحفيز عوامل الاحتقان الاجتماعية والاقتصادية والسياسية[٤٠]؛ وهي كثيرة. كما يستند إلى وجود إدراكات سلبية حول الطبيعة الإثنية والمذهبية للنظام السياسي والمؤسسة العسكرية والأمنية؛ وهي إدراكات لم يعمل النظام (والمعارضة) حيالها أي شيء تقريبا. هذا فضلًا عن الاعتماد على مخاطبة المخيال السياسي ونظام القيم والمدارك الاجتماعية والدينية والمذهبية والجهوية والقبلية؛ ذاك الذي أخذ يراكم منذ سنوات إدراكات سلبية تجاه النظام، بسبب الموقف من الدين ودوره في الحياة العامة.

---

[٣٩] يقول أحد الشعراء: إذا هَبَّتْ رياحُك فاغتنمها* فإنّ الخافقات لها سكون.

[٤٠] انظر بصورة عامة: محمد جمال باروت، **العقد الأخير في تاريخ سورية: جدلية الجمود والإصلاح**، ط١ (الدوحة/بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٢).

وهكذا فإن منطق الفرصة السانحة، هو تكثيف عالٍ للرّهان المشار إليه بكل عوامله وفواعله، وإعادة إطلاقه في سياق زماني ومكاني معيَّنٍ؛ ليكون "شرارة البدء". هذا مع الأخذ بعين الاعتبار ما يسم الحراك الاجتماعي والسياسي من اندفاع وبداهة ومبادرة وسرعة؛ وذلك على أساس أن سورية تعيش تحت ضغوط داخلية وخارجية غير مسبوقة، وأنه لا بد من تحيُّن الفرصة، والحرص على عدم تفويتها. كما أن التراجع قد يكون سببًا في انكسار حركة التغيير؛ وهذا ما يجعل المعارضين والمشاركين في الاحتجاجات عرضة لانتقام محتمل.

"المخاطر الماثلة"

إنّ منطق "الفرصة السانحة" المذكور، يقابله منطق "المخاطر الماثلة". وهذا يعني أنّ ما يعدّ بواعث ومحدِّدات وفواعل للاحتجاج و"الثورة"، على اختلاف الصيغ والبرامج والتفاعلات والتجليات؛ يشكل من منظور شريحة أخرى نوعًا من "المخاطر الماثلة".

ويتجلى ذلك في ما يُقال عن وجود إراداتٍ في الداخل والخارج من أجل إعادة تشكيل سورية على أسس فئويّةٍ وجهويّةٍ، ووفق ارتباطات وتفاهمات مع الخارج. و"المشكلة في أن نظامًا من نوع النظام السوري يجرّ بانهياره الهيئة الاجتماعية برمّتها لاحتمال الانهيار، والدخول في دوامة طويلة المدى من الاضطرابات والاصطفافات بحكم التركيب المتنوع للمجتمع السوري. وعلى المستوى الإقليمي يمكن أن يجرّ انهياره كامل إقليم المشرق إلى فخ التفكك الطوائفي والعشائري فعليًّا"[٤١].

وقد شكّلت الشعارات الطائفية التي تردّدت في التظاهرات والتصريحات في وسائط الميديا المختلفة والفتاوى، مؤشّراتٍ عززت تلك الإدراكات أو المخاوف. وهنا "تُظَهِّرُ" الهتافات مثلًا النّواظم الضمنية للفعل السياسي، أو "اللّاشعور السياسي" كما يقول ريجيس دوبريه. ومن ثم يمكن القول، إن النوازع والاتجاهات التي هي من هذا النوع، تشكِّل مصدرًا نشطًا لإشعال

---

[٤١] عزمي بشارة، "أفكار حول الثورة السورية تحديدا"، **الجزيرة نت**، ٢٠١١/٦/١٠.

الحرائق، ومظهرًا من مظاهرها. خذ على ذلك مثلًا الهتافات التي تقول: "علويّة ع التابوت، مسيحية ع بيروت"، أو "رجالهم ع السيف، ونساؤهم للكيف"[٤٢].

ويجري التركيز على البنية الإثنية –بالمعنى الواسع للكلمة– للمجتمع في سورية، سواء تعلق الأمر بالكرد كمكوّنٍ قومي، أو المسيحيين والعلويّين، كمكوّن دينيٍّ وآخر مذهبيٍّ. كما يقع التركيز على "الإحجام" عن المشاركة في الاحتجاجات المناهضة للنظام[٤٣]. وينطوي ذلك أحيانًا، على مقاربات نفسية تبسيطية ومتسرعة؛ تدعو إلى "تجاوز" المخاوف التقليدية و"الأقلويّة"، حتى لو كان بعض ما يجري في الواقع يعزّزها. وهذه مسألةٌ تتطلب المزيد من التقصي والتحليل.

تاسعًا: "ارتيابي" أو "لا يقيني"

يتّسم الحدث السوري بقدرٍ من "اللايقين" أو "الارتياب"؛ ليس فقط بالمعنى الدارج أو القاموسي للكلمة، وإنما أيضًا بالمعنى الاصطلاحي أو المعرفي. ومن ثم، فإنّ الغموض المُلازم للحدث، يتطلب العمل عليه أو النظر إليه. لكن ليس بوصفه موضعًا للشّكوك والهواجس (وهذا ما يحدث عادةً)؛ وإنّما بوصفه موضوعًا للتقصي، وتفكيك الغموض من خلال تقليب الأمور والحفر في طياتها وطبقاتها والتراكمات الحَدَثِيَّة والعملية والإدراكية بشأنها. ولعل أهمّ ما يجب التركيز عليه، هو الطابع الارتيابي للحدث؛ بمعنى عدم القدرة على "الإمساك" به وإحكام الرأي بشأنه.

---

[٤٢] سامي كليب، "سوريا بين قعقعة السلاح وأنين الإصلاح"، **السفير**، ٢٠١١/٦/٨. وهناك نماذج عديدة لهذه الشعارات والهتافات على مواقع التواصل الاجتماعي (Facebook) و(Youtube)، وغيرها، من تلك الشعارات، "لا إيران لا حزب الله، بدنا سني يعرف الله"، و"مسيحية يا كفار طلعتو بتحبو بشار"، "العلوية عل تابوت المسيحية ع بيروت"، "لا الدكتور ولا العميد غير السني ما منريد".

[٤٣] انظر: حازم صاغية، "الأقليات والعنصرية"، **الحياة**، ٢٠١١/٩/١٧، وانظر كذلك: هاني فحص، "توستالجيا الظلم: أكثريات وأقليات بأخطاء متبادلة"، **السفير**، ٢٠١١/٩/٢١.

وتجب الإشارة هنا إلى أنّه لا يمكن الجزم أنّ هذه الهتافات صدرت من المعارضين للنظام، إذ قد يكون الأمر غير ذلك، خاصة بالنسبة إلى المسيحيين، إذ لم يكونوا هدفًا للمتظاهرين حتى في أكثر المناطق تزمتًا. كما أنّ هناك هتافات وسلوكيات طائفيّة صدرت كرد فعل على استنفار الغرائز الطائفيّة عبر العنف غير المسبوق الذي اكتسى في أحايين كثيرة بصبغة طائفيّة.

والارتياب هنا يحيل –كما سبقت الإشارة– إلى "اللّايقين" أو "اللّا تعيين" تجاه أمر ما. ويتعلق الأمر بـ "احتمالية المعرفة" تجاه الموضوع، وبتغيرها. وهذا نقيض الحتمية التي كانت تقوم على اعتقاد الفيزيائي مثلًا بإمكانية توقّع موقع الجسم إذا عُرِفَت سرعته. وقد انهار ذلك الاعتقاد وقام محلّه كما ذكرنا مفهوم احتمالية المعرفة[٤٤].

نصف الحدث السوري بـ "الارتيابي"؛ وذلك بقدرٍ غير محدَّد واحتمالي من "اللايقين". لاسيّما بخصوص الأسئلة التالية: ما الذي حدث؟ وما زمانه، ومكانه (أماكنه)؟ وما هو سلوكه العملي أو الميداني؟ وما هي طبيعة خطابه؟ والحدث هو فعلٌ مصحوب باتجاه، وكل فعلٍ مصحوب باتجاه. ولكنّ السؤال المطروح هنا هو: إذا تمكّنا من تحديد الفعل، فهل يوصلنا ذلك إلى معرفة الاتجاه والمقصد؟ وهل يكون ذلك بتأثيرٍ تطوريٍّ (في الواقع) أم تأويلي (في التحليل)؟

ما الذي حدث؟

نتحدث عن ارتياب الحدث "الأول" أو "البدئي"؛ أي اندلاع الاحتجاجات في درعا– جنوب سورية. ونطرح الأسئلة التالية: هل نحن أمام مسار متصل، أم أن البداية كانت تعبيرا عن شيء محدد، ثم ما لبثت الأمور أن تطورت بكيفية مختلفة؟ وهل هي "ثورة" عامة، أم "حركة احتجاج" محلية، أصبحت في ما بعد سريعة وخاطفة؟ وهل كان في بال هؤلاء وفكرهم أنّهم يبدؤون ما لم يستطع غيرهم البدء فيه، أو لم يفكروا فيه أصلًا؟ أم أن الأمر بدأ بحادثة محددة، ما لبثت أن شكلت "شرارة" الاحتجاجات؟ هل ما جرى كان اندفاعة ذاتيّة أم نتيجة تخطيط مسبق؟ وهل ثمة تعامل مع الخارج قبل ما جرى، أم أنّ الخارج تدخل على إثر الحدث؟ وماذا عن الوزن النسبي لعوامله، وهل تغيرت الأمور فيه؟ وماذا عن التوقيت والمكان؟

---

[٤٤] محمد عابد الجابري، **مدخل إلى فلسفة العلوم: العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي**، ط٣ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٤)، ص ٣٨٠–٣٨١. وانظر بصورة عامة: توماس كون، **بنية الثورات العلمية**، ترجمة حيدر حاج اسماعيل، مراجعة محمد دبس، ط١ (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٧).

الارتياب في الزّمن

ثمّة "ارتياب" بخصوص التوقيت، لماذا الآن؟ وما طبيعة التّداخل – التّخارج بين الزّمان الداخلي والزمان الإقليمي والدولي، وكيف حدث أن كان الزّمان "مَوجيًّا"، مُتسارِعًا، في بداية الاحتجاجات، ثمّ أبطأ قليلًا، فتسارع، وهكذا... ذلك أنّ وتيرة الاحتجاجات كانت متفاوتة، ثمّ كيف تفاوت زمن البدء (وكذلك الاستمراريّة والإيقاع؟) بين منطقةٍ وأخرى؟ ولماذا لم يأت على مناطقَ أخرى؟

الارتياب في المكان

ينسحب الارتياب على المكان، لماذا أماكن بعينها؟ وهل كان المكان مقصودًا ومختارًا سلفًا، وما طبيعة العلاقة بين اندلاع الاحتجاجات في مناطقَ حدوديّة أو ريفيّة؟ ولماذا تركّزت بل تصاعدت الاحتجاجات في مناطقَ معيّنة، أصبحت تُعرف بـ "مناطق الاحتقان" أو "بؤر التوتّر" الاجتماعي والسّياسي والأمني، ومنها ما اكتسب هذه السّمة منذ عقودٍ عديدة، بحيث أعطت مؤشّرات على معارضة مُتَجَذِّرَة وقابليّة عالية نسبيًّا للانخراط في مواجهات أمنيّة مع النّظام؟

الواقع أنّ الاحتجاجات رسمت خطوطًا جغرافيّة أكثر وضوحًا، من دون القدرة على تقديم تفسيرات جدّية بشأنها، ويمكن التمييز هنا بين ثلاث ميزات بالنّسبة إلى المكان أو الجغرافيا، هي: "المناطق النّشطة"، و"المناطق القلقة" و"المناطق القارّة"، هذا بالنّسبة إلى ديناميّة الاحتجاجات، ويمكن أن تكون التّسميات مختلفة إذا ما أردنا أن نصنّف على أساس عدم الانخراط في الاحتجاجات أو تكون معكوسة إذا صَنَّفنا على أساس تأييد النظام مثلًا.

ونستوحي هذا التصنيف أيضًا من حقل الفيزياء الذرّية، إذ يتحدّث نيلز بور عن "الحالات القارّة" حيث يكفّ الإلكترون في مداراتٍ معيّنة عن إطلاق أمواج كهرطيسية[٤٥]. وهي "المسلّمة" التي تتحوّل مع الفيزيائي دوبروي إلى احتماليّة متعدّدة بالنسبة إلى حالة للإلكترون، وهذا ينسحب أيضًا على مفهومنا لـ "المناطق" و"الأمكنة" التي تتّسم بدورها باحتماليّة التحوّل والتحوّل المعكوس من حالةٍ إلى أخرى، حتّى في أكثر المناطق توتّرًا.

والواقع أنّه ليس ثمّة "مناطق قارّة" بإطلاق، وليس ثمّة تأييد تامّ وحتمي للنظام على ما هو عليه، وإنّما على ما يعد به، وثمّة بالأحرى رفض للبدائل المحتملة، على مبدأ، "لا حبًّا في علي ولكن كرهًا لمعاوية"، حتّى لو انطوى المثل المذكور على دلالة إضافيّة بالنسبة إلى المشهد الرّاهن. وعلى هذا نقترح المسمّيات والتّحديدات التالية:

المناطق النّشطة

وهي المناطق التي تصفها المعارضة بـ "الثوريّة"، فيما يصفها النظام ومؤيّدوه بـ "مناطق التوتّر" وأحيانًا "البؤر الأمنيّة"، وكانت درعا في البداية، ثمّ انتقلت الأمور إلى مدينتَي المعضمية ودوما بريف دمشق، وبانياس في طرطوس، وجسر الشّغور في ريف إدلب، وتلكلخ، ولكن التأزّم الأكثر كثافةً وسخونةً واستمراريّةً كان في تلبيسة وتلدو والرستن في ريف حمص، وأحياء من مدينة حمص، وأيضًا في بعض المناطق من ريف حماه وإدلب وغيرها. وقد اتّخذت الاحتجاجات أشكالًا من العمل المسلّح والسّيطرة، ومحاولة إقامة "سلطة بديلة".

---

[٤٥] – تسمّى أيضًا "المحطّات المداريّة"، ويفترض بور وجود مدارات في الذرة إذا سار فيها الإلكترون كفّ عن إطلاق أمواج كهرطيسية، ممّا يجعل الإلكترون في "حالة قارّة"، وهذا مصدر المصطلح الأساسي في نظرية "بور" في الفيزياء الذرّية المسمّى "الحالات القارة". انظر: محمد عابد الجابري، **مدخل إلى فلسفة العلوم**، مرجع سبق ذكره، ص ٣٧٧.

المناطق القلقة

وهي مناطق تتجاذبها ديناميات وقوى متعارضة بشأن الموقف من حركة الاحتجاجات والعنف المصاحب. وتتراوح بين مناطقَ شهدت احتجاجات متقطّعة ما لبثت أن توقّفت أو تضاءلت إلى حدٍّ ما، ومناطق شهدت توتّرًا جزئيًّا، وهي مهدّدة بالانزلاق نحو العنف الداخلي أو المحلّي بسبب الطبيعة المركّبة للتكوين الإثني والسّياسي والاجتماعي.

ومناطق من المحتمل أن تشكّل "خطوط تماسّ" أو "خطوط مواجهات" في نزاعات أهليّة (طائفيّة) محتملة، سواء داخل المدن كما في حمص وفي ريف دمشق واللاذقيّة وجبلة وبانياس وريف حماه وريف إدلب، إلى جانب التوتّرات الإثنيّة (القوميّة أو العرقيّة) المحتملة في حلب وريف حلب والمنطقة الشرقيّة.

المناطق القارّة

وهي مؤيّدة للنظام بشكلٍ يتفاوت بين تأييد "صريح" كما في اللاذقيّة وحلب وطرطوس ودمشق وحمص وريفها وريف حماه والرقّة والسويداء، وتأييد "مشوب بالترقّب" كما في مناطقَ واسعة في مختلف أنحاء سورية، والترقّب هو سمة عامّة، ولكنّه أحيانًا ينطوي على اعتباراتٍ سياسيّة مثل ما يُقال عن "الشّريحة الصّامتة". وتأييد "مشروط" كما في المناطق الكرديّة على وجه العموم.

ما هو تفسير "المناطق القارّة" التي تخالف النمطيّة التي تشيعها أطراف عن أنّ الانقسام السّياسي (مؤيّد – معارض) يتمّ على أسسٍ إثنيّة ومذهبيّة؟ ولماذا يتفاوت التعبير السياسي والاجتماعي والعنفي بين منطقةٍ وأخرى؟ وما هو مفهوم مناطق التوتّر والاحتقان الرّاهنة في سورية؟ وكيف أمكن "التّحييد النّسبي" للكرد في الحراك الرّاهن؟ هنا يبدو المشهد السوري أكثر تعقيدًا بكيفيّةٍ تجعله "عصيًّا" على التنميط القصدي واستدعاء أو إحياء ديناميات صراع ومنافسة من فترة "الملل والنّحل" المملوكية والعثمانيّة وربّما قبلها.

الارتياب في الصّورة: رؤية فصاميّة

يتجلّى الارتياب أيضًا في وجود رؤيتين رئيستين منفصلتين ومتمايزتين للأمر، فيهما القليل من الدلائل والإثبات الفعلي والواقعي، وكثير من المبالغات والأدلجة، وتتحدّثان عن يقين لديهما بشأن

ما يجري، فيما هما "تغطّيان" على الرّؤى الأخرى، حتّى أنّهما لا تحتملان وجودها بل و"تؤثمان" أصحابها. وليس من حكاية تعرض ما جرى بمعزلٍ عن التأويل والتّحوير والتبديل الذي تقتضيه المنافسات والتجاذبات السياسيّة الرّاهنة. ومن ثمّ فإنّ المتلقّي يقع على جانبٍ واحد من الصورة، ولا يملك الكثير تجاه الجوانب الأخرى، كما لا يملك التدقيق في الأمر بسبب الأجواء النفسيّة والعاطفيّة المشحونة.

والواقع أنّ محاولة جمع الرّوايتين – إذا سلّمنا بوجود روايتين للأمور – لا توضّح الأمور، لأنّك تجد رؤًى وتفاصيلَ وحتّى أحداثًا مختلفة تمامًا وكأنّك أمام موضوعين منفصلين، وليس الأمر كما لو أنّك تقع على وصفين مختلفين لأمرٍ واحد، وإنّما هي سرديّات وتوصيفات متنوّعة لأمورٍ مختلفة.

عاشرًا: "الضّغوط المخياليّة"

يمثّل الحدث السوري فرصة ملائمة لتأثير ما ندعوه بـ "الضّغوط المخياليّة"، أي المخيال بوصفه عاملًا مؤثّرًا في المشهد السّياسي. والواقع أنّ الضّغوط المخيالية تنطلق من الحدث، ولكنّها تتمركز حوله هو نفسه. إذ أنّ ما يجري في الواقع هو الشّرط اللازم لتحقيق ما يعد به الحدث.

ويتحدّد المخيال عمومًا في المعاني والأبعاد التالية[٤٦]: "استحضار" صور شيء ما كُنّا قد رأيناه سابقًا. و"خلق" صور لأشياء غير واقعيّة أو غير معروفة، أو "تركيب" صور معروفة، ولكن بطريقة جديدة. و"بلورة" المفاهيم والتصوّرات والنظريّات الجديدة. والعقائد الخاطئة التي تتصوّرها النّفس وتجسّدها في المخيال خارج كلّ رقابة أو سيطرة للعقل.

ويقوم المخيال بدورٍ في تغذية "الضّغوط المخياليّة" التي تمثّل بعدًا من أبعاد الحدث، وتدخل – مع عواملَ أخرى – دورة التّفاعلات الخاصّة به. ويتفاوت تأثيره في المشهد السوري، تبعًا للوزن

---

[٤٦] – انظر: محمد أركون، "الإسلام: عالم وسياسة"، ترجمة هاشم صالح، **مجلّة الفكر العربي المعاصر**، بيروت العدد ٤٧ (١٩٨٧)، ص ١٦-١٧.

النّسبي لفواعل الحدث وأبعاده، وخاصّةً ما يتعلّق بالجوانب الإدراكيّة والافتراضيّة وما يتّصل باتّجاهات الهويّة.

المخيال كـ "فاعل" أو "ناشط سياسيّ"

يثير الحدث السّوري عوامل ضغط مخياليّة عالية، ويرتفع سقف التوقّعات (الآمال – المخاوف) بالنّسبة إلى السوريّين والمعنيّين بالشّأن السّوري. ويتجلّى ذلك بين حدّيْن: واقعي ورمزي، حدّ واقعي تمثّله التطوّرات الميدانيّة والعمليّة، وحدّ رمزي وقيمي تمثّله التصوّرات والمدارك. ويمثّل المخيال جزءًا من اللّعبة أو المنافسة السياسيّة بين مختلف الأطراف، وقد اجتهد الطّرفان الرّئيسان في توظيفه واستثماره سياسيًّا من أجل إدراجه في خانة تأييد الموقف وتعزيزه.

هنا يجري العمل على تعزيز مداركَ مخياليّة معيّنة أو تحفيزها تجاه الآخر، فيما يكون العكس بخصوص مدارك أخرى يجري "تجاهلها" أو "السّكوت" عنها أو "التّقليل" من شأنها. ويحدث ذلك من خلال التأثير النّشط في الرّوابط بين "التمثّلات السياسيّة والحالات الوجدانيّة، وبين المتخيّل والدّوافع اللاشعوريّة، إلى جانب معاينة فحص أسباب الاستثمارات الوجدانيّة وكذا اشتدادها خلال الصّراعات"[٤٧]. ويتجلّى البعد المخيالي للأزمة الرّاهنة في مجموعةٍ من النّقاط منها:

- استحضار صور ومدارك سابقة على صلةٍ بالصّراع على السّلطة[٤٨]. و"اللّعب" العلني و/أو الضّمني على طبيعة التّكوين الإثني للمجتمع والدّولة.

---

[٤٧] – بيير أنسار، "المتخيّل الاجتماعي لدى فرويد"، في: محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، **الفلسفة الحديثة: نصوص مختارة، ط١** (الدار البيضاء: أفريقيا الشّرق، ٢٠١١)، ص ١٤٨ – ١٤٩.

[٤٨] – ثمّة مثلا احتفاء كبير بكتاب: نيكولاس فان دام، **الصراع على السلطة في سوريا: الطائفية والإقليمية والعشائرية في السياسة ١٩٦١ – ١٩٩٥** (القاهرة: مدبولي، ٢٠٠٥)، الذي صدر قبل فترةٍ طويلة، ثمّ أُدخِلَت عليه تعديلات وإضافات، ونُشِرَت ترجمته إلى العربيّة منذ سنوات. ويبدو أنّ الأزمة السورية اليوم أعادت الاهتمام به، نظرا لرؤيته للمشهد السوري على أنّه "مِلَل" و"نِحَل" وطوائف وقبائل وعشائر ، ممّا يتوافق مع بعض الرؤى الفئويّة، وما قبل حداثيّة، وما قبل سياسيّة، للمجتمع والدولة في سورية.

- "أدْيَنة" و"مذْهبة" الأزمة الرّاهنة، كترديد الشّعارات وإثارة الشّائعات وإطلاق التعليقات والمواقف المختلفة. وهذا جزء من المواجهة النفسيّة والإعلاميّة والرمزيّة إذ تفعل الدّعاية والتأثير المخيالي فعل الحقيقة!

- "إعادة تركيب" صور ومدارك عن تجاربَ فرديّة وجماعيّة بناءً على تجاربَ سابقة، أو تمثّلها، ومن ذلك مثلًا قصص وحكايات السّجناء السياسيّين السابقين، والأضرار التي لحقت بأفراد جرّاء المواجهات السابقة بين النّظام وقوى المعارضة المختلفة. ويندرج ذلك في إطار التأكيد على أنّ ما يجري اليوم ليس طارئًا، وإنّما هو استمرار لما كان في الماضي.

- استثمار المدارك والصّور النمطيّة لدى مختلف الشّرائح والتكوينات الاجتماعيّة والسياسيّة، عن الدّولة والمؤسّسة العسكريّة والأمنيّة، وهي مدارك متفاوتة، ومتناقضة في بعض الأحيان، والأهمّ أنّ ذلك كلّه يحدث بوجود أزمة ثقة بين المجتمع والدّولة.

- إثارة المخاوف بشأن الهويّات الفرعيّة أو الهويّات "الطّارئة" أو "الفوضويّة"، إلخ، في البنية الثقافيّة والنفسيّة والاجتماعيّة، سواء بشكلها الفردي أو الجماعي.

"الإقدام"/"الإحجام"

يمكن النّظر في التجلّي العامّ للضّغوط المخياليّة في المشهد السوري من خلال ديناميّتين أو موقفين عامّين أو رئيسين متعاكسين هما: الإقدام والإحجام. وتتجلّى الضّغوط المخياليّة الدافعة للمشاركة في التّظاهرات ودعم المعارضة من خلال مؤشّرات أو محفّزات رئيسة:

١) الشّعور بإمكانيّة التّغيير، أو تحوّل "الإمكان" أو "الأمل" لدى البعض إلى أمر وشيك.

٢) "انتقال" موجة "الثورات" العربيّة وتأثيرها الدّافع والحافز في سورية.

٣) التّعويض عن الشّعور بالأزمة و"تضاؤل" الأهمّية واستنزاف رأس المال الرّمزي والقيمة والسّمعة والحضور السوري في المنطقة.

٤) الحساسيّة البالغة للإعلام والاستعارات الثقافيّة والشّائعات والحرب النفسيّة، وهي قريبة من "روح المغامرة"، و"الإثارة"، والرّغبة في "التّغيير".

٥) تفكيك المخاوف لدى شرائحَ معيّنة من السنّة تجاه التأثير الدّيني (المذهبي) المفترض لعلاقة سورية بإيران و"حزب الله"، وإبراز "البعد السنّي" من الهويّة السورية.

٦) إعادة بناء العلاقة بين سورية وإطارها العربي والإسلامي في إطار تحالفات وتوازنات جديدة.

فيما تتجلّى الضّغوط المخياليّة التي تؤدّي إلى "الإحجام" عن المشاركة في الاحتجاجات أو بالأحرى المشاركة في التّظاهرات المؤيّدة ودعم النظام، من خلال مؤشّرات أو محفّزات رئيسة:

١) الشّعور بمخاطرَ جدّية ممّا يجري، والخوف من المجهول، وخاصّةً أنّ ثمّة مؤشّرات أو بوادر ذات دلالة مثل حالات العنف الطائفي، والاستقطابات الحادّة، وغيرها.

٢) التطوّرات "غير المطمئنة" في البلدان التي شهدت "ثورات" أو "تغيير أنظمة" مثل تونس ومصر وليبيا، لجهة العنف وعدم الاستقرار والتّأثير الأجنبي.

٣) الشّعور بأنّ ما يجري قد يمثّل مدخلًا للتدخّل أو الاختراق الغربي للمنطقة من خلال "إيصال" نظم حكم مقرّبة من الغرب.

٤) يعدّ الضّغط الإعلامي عاملًا رئيسًا في المواجهات أو المنافسات الرّاهنة بشأن المشهد السّوري، وما دعم الغرب للمعارضة إلّا استمرارًا لمعاركه تجاه سورية، ولكن بوسائلَ أخرى.

٥) ثمّة اتّجاه لـ "أدينة" و"مذهبة" حركة التّغيير والمعارضة في سورية.

٦) تغيير ديناميّات الصّراع وقواعده وإدراكاته في المنطقة من الصّراع مع "إسرائيل" و"الغرب" إلى "الصّراعات الداخليّة" أو الصّراع مع "إيران".

الحادي عشر: لُجِّي؟

اللجّة هنا هي انفتاح الحدث السّوري على كلّ الاحتمالات، بكيفيّةٍ لا يمكن توقّعها، وهذا أمر يخصّ كلّ فواعل الحدث السوري وعوامله تقريبًا، بما فيها القوى الاجتماعيّة والسياسيّة المتنافسة أو المتصارعة على الإمساك بما أمكن من السّلطة والتحكّم في توزيع الموارد الماديّة والمعنويّة أو تخصيصها، كما في تعريف السّياسة لديفيد إيستون.

والمشهد السّوري "لُجِّيّ" بمعنى "اختلال" النّواظم الذاتيّة التي تحافظ على تماسكه واتّجاهه، والواقع أنّ وجود دولة مركزيّة وحكومة ونظام سياسي متماسك لا يمثّل حتّى الآن عامل "يقين" في هذه النقطة بالذّات، لأنه يتعرّض لاهتزازاتٍ وتآكلٍ بسبب الضّغوط المستمرّة في الدّاخل والخارج، وهو ما يجعل استمراره موضع تحدٍّ كبير، ذلك أنّ "إسقاط النّظام" يعني بالنّسبة إلى البعض "إسقاط الدّولة"، ويعني بقاؤه الشّيء نفسه بالنّسبة إلى البعض الآخر.

في اللجّة

يتأسّس مفهوم "اللجّة" على مكوّناتٍ أو أبعاد متعدّدة، الأوّل هو البعد اللّغوي، والذي ينطوي على معانٍ كثيرة منها: الماء العميق أو البحر، والتّمادي في الأمر أو الإلحاح عليه، وتقول اِلتجّ الأمر أي عظم واختلط، وتقول لجّة الماء ولجّة الظّلام. والثاني هو البعد الاصطلاحي، ويعني تداخل مجموعة غير محدّدة من العوامل والفواعل وتراكبها وتماهيها لأمرٍ ما، بكيفيّةٍ تجعل من التوصّل إلى معرفةٍ يقينيّة بشأنه أمرًا متعذّرًا، ومثله التنبّؤ باحتمالات تطوّره ومساراته، بكلّ ما يتضمّنه ذلك من معنى الفرصة – التّهديد، الإمكانيّة – الاستحالة.

واللجّة قريبة جدًّا من لحظةٍ حرجة، ومن مواقف الأزمة الحادّة التي يُعدّ تحديد فواعلها النّشطة واحتمالاتها المرجّحة تحدّيًا كبيرًا للمتلقّي وللأطراف المعنيّة. ويتقاطع المفهوم إلى حدٍّ ما مع مفاهيمَ سابقة عن "الارتياب" و"عدم اليقين" وذلك في بعدين رئيسين، الأوّل هو الأساس المعرفي والإبستمولوجي، والثاني هو طبيعة الموضوع أو الحدث.

اللجّة هنا ليست استمرارًا ميكانيكيًّا للأزمة الرّاهنة، أو إسقاطًا تلقائيًّا، أو انسحابًا خطيًّا لها على المستقبل، حتّى لو كان ذلك محتملًا لفترةٍ من الزّمن، وهي بمعنًى أدقّ استمرار المشهد السّوري بين أخذٍ وردّ، تنافر وتجاذب، حال متغيّرة ومفتوحة على آفاقٍ غير منضبطة، إنّها بمعنى أدقّ التخبّط في اللجّة (Mudding Through).

ولا تذهب الأمور نحو تحديد "قاهر" للمعنى، إذ إنّ الأمور مشروطة بمحدّدات وعوامل يمكن تحديدها ولا يمكن توقّعها، تدفعنا دفعًا قصديًّا باتّجاه حالةٍ بعينها، ذلك أنّ ما يجري – هو حتّى الآن – لا يخرج عن إرادة المعنيّين حتّى لو كان للبيئة الخارجيّة وديناميّات الاختراق والتدخّل أو التّغلغل إكراهاتها واشتراطاتها وإلزاماتها.

"تفسير كوبنهاغن"

هنا نستند مجدّدًا لمفاهيمَ مستمدّة من فيزياء الكمّ، وتتعلّق بما يسمَّى "تفسير كوبنهاغن"، وهنا يمكن التّعاطي التّحليلي مع الحدث السوري بهذه الكيفيّة المركّبة، بمدلول ما يحدث عند إجراء ملاحظة تجريبيّة. ويقتضي هذا التّسليم "بأنّ ملاحظة الشّيء تُغَيِّرُ منه، وأنّنا نحن الملاحظين جزءٌ حقيقي فعلًا من التّجربة، ولا يوجد شيء مثل السّاعة التي تدقّ سواء كنّا ننظر إليها أم لا"[٤٩].

وقد يبدو هذا غريبًا بالنّسبة إلى البعض، وربّما بديهيًّا بالنّسبة إلى البعض الآخر، إلا أنّ قيمة ما نقول تتأتّى من انبثاقه من الفيزياء النظريّة ومن تطبيقاتها الثوريّة في كيفيّة فهمنا للعالم. ولكن الأهمّ من ذلك هو القول "إنّ ما ندركه – ما نعلمه من تجاربنا – متأثّر بدرجةٍ كبيرة بتوقّعاتنا"، وقد أتى آرثر أدينجتون على مثالٍ يثير القلق فعلًا، قال: "نفترض أنّ أحد الفنّانين أخبرك بأنّ

---

[٤٩] جون جريبين، **البحث عن قطة شرودنجر**، ترجمة فتح الله الشيخ وأحمد السماوي، ط١ (أبو ظبي: مشروع كلمة، هيئة أبو ظبي للتراث، القاهرة: كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠٠٩)، ص١٨٣.

شكل رأس إنسان "مختبئ" في قطعة من الرّخام، ستقول: "هراء"، لكنّ الفنّان يبدأ حينئذٍ في نحت الرّخام بشيءٍ ليس أكثر من مطرقة وإزميل كاشفًا الشّكل "المختبئ"[٥٠].

فهل يمكننا الحديث عن "الخلق" بـ "التخيّل" أو بـ "الافتراض"، وهل هذه هي الطّريقة التي "اكتُشِفَت" بها الذرّة مثلًا؟ وهذا يذكّر بقول بيير بورديو عن أنّ حديث ماركس عن الطّبقات "أوجدها". هنا لا يبدو أنّ ثمّة شيئًا حقيقيًّا. وما يحدث في الواقع هو ما تراه أو تفترضه أو تَجِدّ فيه، وما لا تراه لا تملك حياله أيّ شيء، وقد لا يكون موجودًا أبدًا!

هذا يتداخل مع المفهوم السّابق عن "اللجّة"، ما يجعل حدثيّات المشهد السوري ومداركه ومساراته تتدفّق بشكلٍ غزير، وبلا كيف، وبلا شكل يمكن "تعيينه" أو "الجزم" بماهيّته ومآله. ويزيد في الأمر أنّ "الخلق" أو "التخليق" بالنّسبة إلى المشهد السّوري، وأيّ مشهد، هو على عدد "الخلائق" من "مشاركين" و"متابعين" و"شهود"، وغيرهم.

ولعلّ أهمّ ما يقدّمه المفهوم هو أنّ الحديث عن تظاهراتٍ واحتجاجات، "يخلقها"، أو هو يحثّ عليها أو يزيدها – وقد سبقت الإشارة إلى ذلك – كما أنّ الحديثَ عن الشرعيّة والقول بها أو ادّعاءَها "يُوجِدها" لأنّه يرسم المسار المفترض لما يجب القيام به. وهذا ينسحب على ما تقوله مختلف الأطراف، انظر إلى الرّهان على ما يصدر من مجلس الأمن، وعندما يصدر شيء من هذا بشأن الأزمة السوريّة فإنّه يؤثّر في الوضع بكليّته، ويكون ذلك بمنزلة "إشهار" لـ "أمرٍ ما"، كأنّما هو "واقع"، بغضّ النّظر عن طبيعة ما يجري على الأرض. ولكن "تعثّره" المتكرّر في ذلك عنى "إشهارًا" وربّما "تأجيلًا" لأمرٍ معاكس، وهو أنّ ما يجري حتّى الآن هو أزمة محكومة إلى حدٍّ ما بتوازناتٍ وتجاذباتٍ خارجيّة.

---

٥٠ **المرجع نفسه**، ص١٨٣.

يحيل المشهد اللجّي مستعينا بالمفهومين المذكورين ("اللجّة"، و"تفسير كوبنهاغن") إلى صعوبتين بالِغتين أو وضعين حرجين، الأوّل يخصّ الحدث الغامض غموضًا مُعَانِدًا عصيًّا على التّحليل والتّفسير، والثاني يخصّ "اتّجاهه" أو "مآله" المحتمل أو المفترض، أو ما نعنيه باحتمالات تطوّره في اللحظة التالية أو في المستقبل. وفي اللّحظة التي نؤسّس فيها معرفة ما بالحدث بناءً على "واقع" ما في "لحظة" ما، فإنّه تكون حدثت وقائع وتطوّرات ممّا يتطلّب معرفة جديدة، هنا تحدّي "الإمساك بالمعنى"، حتّى لو كنّا نلجأ إلى مفاهيمَ مرنة وإطار تحليلي مركّب، وحتّى لو كانت المفاهيم "فوق" الواقع أو لديها حراك مستقلّ نسبيًّا عنه، عن سيولة تطوّراته وتفاصيله المرهقة والمضنية على أدنى تقدير.

يُمثّل البعد "اللجّي" حصيلةً أوليّة للتّحليل الكلّي للمشهد السّوري، كأن تقول مثلًا، إنّ سورية "في مهبّ الريح"، بكلّ ما في ذلك من "مفاجآت" و"مفارقات" و"ارتياب" و "لا توقُّع" و "ضغوط مخيالية"، وغيرها ممّا ذكرنا في الدّراسة، ولكنّه يفيد أيضًا بِعَدِّهِ مفهومًا "بدئيًّا" في النّظر للموضوع، بمعنى أنّنا يمكننا تحليل المشهد بالاعتماد على مفهومٍ موسّع لـ "اللجّة"، التي تعني عندئذٍ الاتّجاه بالتّحليل نحو المستقبل.

"الإشارات والتّنبيهات"

- إنّ تناول الحدث السّوري بكلّيته، هو نوع من التّفكيك لأبعاد الفعل السّياسي خلال الأزمة، يطال أيضًا جوانب مُسبقاتها وخلفيّاتها والإمكانات أو الاحتمالات النّشطة لتطوّرها في اتّجاهاتٍ غير محدّدة. وقد يساعد في التوصّل إلى المستوى العميق من طبقات الحدث ومنطلقاته المشتركة بين مختلف الفواعل المؤثّرة فيه، وخاصّةً في الاتّجاهين الرّئيسين، الموالاة والمعارضة، على اختلاف رؤاهما وتنويعاتهما.
- حتّى الآن لم ينظر إلى ما يجري في سورية كـ "حدث" له فواعل ومحدّدات يجب النّظر فيها وتقصّيها، ومن ثمّ الاستجابة الفعّالة لها، وإنّما كـ "فرصة – تهديد"، فالمعارضة

عدّت الأزمة "فرصة سانحة"، وهذا يقتضي منها السّعي لـ "اقتناصها"؛ فيما عدّها النّظامُ – وشرائح أخرى – "تهديدًا" وجوديًّا أو كيانيًّا، وهذا يقتضي منه السّعي لـ "احتوائها".

- يبدو الخطاب السّياسي بشأن الحدث، وكأنّه محكوم بأنماطٍ من "العقبات المعرفيّة" و"الأدلجة الشديدة" و "الضّغوط المخياليّة" و"البراغماتيّة الضيّقة"، ما يعني أنّه (الخطاب) محكوم بجهل الشّروط التاريخيّة للمشهد السّوري. وهكذا تبدو الأمور مشدودة لما "تأمله" فواعل الحدث، وليس لما "يقتضيه" الواقع (والمصلحة الوطنيّة).
- كشفت الأزمة عن اختلالٍ عميق في طبيعة العلاقة بين الدّولة والمجتمع، كما في العلاقات الاجتماعيّة والسياسيّة، وأفصحت عن "تآكل" أو "استنزاف" رأس المال الرّمزي، ومخاوف من "الارتداد" أو "النّكوص" عن الفكرة الوطنيّة والعروبيّة، إلى نظام "الملل والنّحل"، أو من "الدّولة التسلطيّة"، إلى "الدّولة الفاشلة".
- إنّ ما يجري ليس نتيجة "مؤامرة" محضة، كما أنّه ليس "تلقائيًّا" محضًا، ثمّة ما ندعوه "توافق موضوعي" بين عوامل وفواعل كثيرة أدّت إلى ما نحن فيه اليوم، وهذا من طبيعة الأمور.
- تتجاذب الحدث السوري ضغوط مخياليّة نشطة تخصّ "المنوال" في التّغيير، فهل يكون على غرار: تونس، ومصر، واليمن، والبحرين، أم أنّ الأمر يطول بالسوريّين ليشهدوا ضغوط منوالٍ آخرَ، كما حدث في أفغانستان، والصّومال، والعراق؟

الخاتمة

يطرحُ المشهد السّوري اليوم تحدّياتٍ كبيرة على السوريّين والمعنيّين بسورية، لجهة الانطباعات والارتدادات المتعاكسة التي ظهرت بينهم، والخلافيّة الحادّة في تعيين الأمور وتعريفها، والواقع أنّ المشهد أثار – حتّى وقتٍ قريب – قدرًا متقاربًا نسبيًّا من الآمال – المخاوف بشأن الاحتمالات المستقبليّة للظّاهرة السوريّة، وخاصّةً على صعيد طبيعة الدّولة والعلاقة بينها وبين المجتمع وما يتّصل بالموقف من القضايا الإقليميّة والدوليّة الكبرى.

وتتداخل عوامل الحدث السّوري وفواعله بكيفيّةٍ يصعب الإمساك بها، ومثلما تتطلّب الأزمة "خروجًا" محتملًا، ربّما اضطراريًّا وحاسمًا، على قواعد اللّعبة الرّاهنة، على غرار "عقدة غورديان"

المذكورة في الدّراسة، فإنّ التّحليل العلمي أو الأكاديمي ربّما تطلّب مقاربةً نظريّة مركّبة، جاء أكثرها خروجًا أيضًا على قواعد التّحليل المعتادة، وهو تجريب واختبار أوّلي، على أمل أن يساعد ذلك في التعرّف إلى بعض جوانب الأزمة الرّاهنة وطبقاتها وطيّاتها.

ولكنّنا لا نرى ما يجري "قطيعة كبرى" أو "علّة أولى" لولادة أو وجود سورية جديدة بالكلّية، وإنّما لحظة مواجهة بين رهانات وإرادات داخليّة وخارجيّة، ولا أحدَ يستطيع الجزم بنتائجها أو مآلها، لأنّ المشهد مفتوح على مستقبلٍ "لا يقيني"، و "لا متوقّع"، و"خلافي"، و"ارتيابي"، و"لجّي".

لقد حاولت الدّراسة تقصّي "التباس" أو "انحباس" المعنى في الحدث السوري، وهذا من طبيعة المواقف في الأزمات الوجوديّة أو الكيانيّة الكبرى، وهو من طبيعة "الحدث" بالمعنى الذي تورده أو تقترحه الدّراسة، وكذلك بالمعاني التي يقدّمها جاك دريدا، وفرانسوا ليوتار وغيرهما، ويحيل ذلك إلى الطّبيعة المركّبة لعوامله وفواعله، وللرّهانات المتعاكسة لأطرافه ولاعبيه، والأهمّ هو "التّجاذبات" الثّقيلة التي حكمت أهله والمعنيّين به، وديناميّات التّغلغل والاختراق الخارجي، والأهمّ هو قابليّة سورية لكلّ ما يحدث اليوم، بكلّ أبعاده وتجلّياته.

وأخيرًا، يبدو أنّ السوريّين يقفون بين مخافتين، الأولى هي أن يؤدّي "إسقاط النّظام" إلى "إسقاط الدولة"، والثانية هي أن يؤدّي بقاء النّظام إلى "إجهاض" التّغيير، وكأنّهم "محصورون في اللّحظة، ومُعَلَّقُون بين "عدمين"، بحسب تعبيرٍ معروف لباشلار.

قائمة المراجع والمصادر:

الكتب:

- أركون. محمد، **الإسلام: الأخلاق والسّياسة**، ترجمة هاشم صالح، ط١ (بيروت: مركز الإنماء القومي ١٩٩٠).

- أركون. محمد، **الفكر الإسلامي: قراءة علميّة**، ترجمة هاشم صالح، ط٢ (بيروت: مركز الإنماء القومي، ١٩٩٦).

- الأنصاري. محمد جابر، **تكوين العرب السّياسي ومغزى الدولة القطرية**، ط٢ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٥).

- باروت. محمد جمال، **العقد الأخير في تاريخ سورية: جدليّة الجمود والإصلاح**، ط١ (الدوحة/بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السّياسات، ٢٠١٢).

- بشارة. عزمي، **في الثورة والقابليّة للثورة**، ط١ (الدوحة/بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السّياسات، ٢٠١١).

- بودريار. جان، **المصطنع والاصطناع**، ترجمة جوزيف عبد الله، ط١ (بيروت: المنظّمة العربية للترجمة، ٢٠٠٨).

- توفلر. ألفين، **صدمة المستقبل: المتغيّرات في عالم الغد**، ترجمة محمّد علي ناصف، ط٢ (القاهرة: الهيئة المصريّة لنشر الثقافة والمعرفة العالميّة، ١٩٩٠).

- الجابري. محمّد عابد، **مدخل إلى فلسفة العلوم: العقلانيّة المعاصرة وتطوّر الفكر العلمي**، ط٣ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة، ١٩٩٤).

- جريبين. جون، **البحث عن قطّة شرودنجر**، ترجمة فتح الله الشيخ وأحمد السماوي، ط١ (أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للتّراث، ٢٠٠٩).

- حرب. علي، **ثورات القوّة النّاعمة في العالم العربيّ: نحو تفكيك الدّيكتاتوريّات والأصوليّات**، ط١ (بيروت: الدار العربيّة للعلوم ناشرون، ٢٠١١).

- دريدا. جاك، **ما الذي حدث في حدث ١١ سبتمبر؟**، ترجمة صفاء فتحي، مراجعة بشير السباعي، ط١ (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣).

- ديبور. جي، **مجتمع الفرجة: الإنسان المعاصر في مجتمع الاستعراض**، ترجمة أحمد حسّان، ط١ (القاهرة: دار شرقيّات، ١٩٩٤).

- سبيلا. محمد وعبد السّلام بنعبد العالي، **الفلسفة الحديثة: نصوص مختارة**، ط١ (الدار البيضاء: أفريقيا الشّرق، ٢٠١١).

- سبيلا. محمد، **للسّياسة بالسّياسة: في التّشريح السّياسي**، ط١ (الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٠).

- طرابيشي. جورج، **المثقّفون العرب والغرب: التحليل النّفسي لعصاب جماعي**، ط١ (بيروت: دار الريس، ١٩٩١).

- طرابيشي. جورج، **في ثقافة الديمقراطيّة**، ط١ (بيروت: دار الطّليعة، ١٩٩٨).

- طرابيشي. جورج، **من النّهضة إلى الردّة: تمزّقات الثقافة العربيّة في عصر العولمة**، ط١ (بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠).

- غليك. جايمس، **نظريّة الفوضى، علم اللا متوقّع**، ترجمة أحمد مغربي، ط١ (بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٨).

- فرويد. سيغموند، **علم نفس الجماهير**، ترجمة وتقديم: جورج طرابيشي، ط١ (بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠٦).

- فوكو. ميشيل، **المراقبة والمعاقبة: ولادة السّجن**، ترجمة علي مقلد، تقديم مطاع الصفدي، ط١ (بيروت: مركز الإنماء القومي، ١٩٩٠).

- كون. توماس، **بنية الثورات العلميّة**، ترجمة حيدر حاج إسماعيل، مراجعة: محمد دبس، ط١ (بيروت: المنظّمة العربيّة للترجمة، ٢٠٠٧).

- وينبرغ. ستيفن، **الدّقائق الثلاث الأولى من عمر الكون**، ترجمة وائل الأتاسي (دمشق: دار الرسالة، ١٩٨٦).

الدّراسات والتّقارير:

- أركون. محمد، "الإسلام: عالم وسياسة"، ترجمة هاشم صالح، **مجلّة الفكر العربي المعاصر**، بيروت، العدد ٤٧ (١٩٨٧)، ص ١٦-١٧.
- باروت. محمّد جمال (المؤلّف الرّئيس)، **التقرير الوطني الاستشرافي الأوّل – مشروع سورية ٢٠٢٥** (دمشق: هيئة تخطيط الدولة، برنامج الأمم المتّحدة الإنمائي، ٢٠٠٧).
- بلقزيز. عبد الإله، "اليقينيّات التي أسقطتها الثّورة"، **الطريق**، بيروت، العدد ١ (صيف ٢٠١١).
- الخالدي. رشيد، "الثورات العربية ٢٠١١: ملاحظات تاريخية أوّلية"، **مجلّة الدراسات الفلسطينية**، بيروت، العدد ٨٦ (ربيع ٢٠١١)، ص ١٧-٢٣.
- ضاهر. مسعود، "البعد الثقافي في الانتفاضات العربيّة الرّاهنة "، **الطريق**، بيروت، العدد ١ (صيف ٢٠١١).
- غليون. برهان، "الولادة الجديدة للعالم العربي"، **مجلّة الدراسات الفلسطينيّة**، بيروت، العدد ٨٦ (ربيع ٢٠١١)، ص ٨ – ١٦.